روايات مصرية للجيب

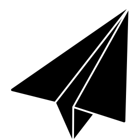


شيرين هنائي

صَيْدُ فيلٍ مُجَنَّح

تم تجهيز هذه النسخة بواسطة:

أنمار

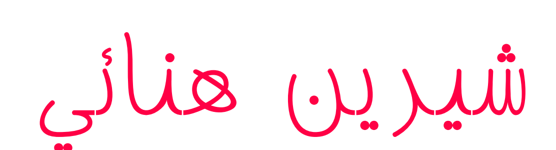


https://t.me/osn_osn



Scan me!

صيد فيل مُجنح





روايات مصرية للجيب

سلسلة





مصنف مصري مائة في المائة، لا تشوبه شبهة الترجمة أو الاقتباس أو النقل عن أية قصص أوربية.

•

مصنف من ابتكار

الأستاذ: حمدي مصطفى

•



الشركة العربية الحديثة .. منفذ البيع: 4 شارع الإسحاقي - منشية البكري - القاهرة.
ت: 22586197 (02) / 24550499 (02)، فاكس: 22596650 (202) +
www.rewayatmasreya.com facebook.com/rewayatmasreya @rewayatmasreya

٢٧٠٦٨٢٠٠٥٣

التساؤلات الأولى

مريم

مطار تامبا الدولي – فلوريدا

الجريمة الكاملة هي الجريمة التي لا يُترك وراءها سلاح، أو آثار دماء، أو جثة أما الجريمة المثالية، فهي التي يظل القتيل بعدها حيا، ولا يعرف أحد أنه قُتِل إلا قاتله.

عندما قابلت كابتن (يحيى)، في أول يوم عمل لي مساعدة طيار، عرفت أنه قتيل، ولا يعرف أحد بموته إلا هو وقاتله... وأنا طبعًا

يقترب مني وجهه كأي وجه مُهاجر آخر، يحمل ملامح أصوله المصرية، مخفاة خلف تعبيرات وجه أمريكية اكتسبها عبر سنوات تجريف الهوية، التي يتعرض لها الجميع هنا طواعية.

لكن (يحيى) يجاهد، كفريق يأمل أن يظل وجهه طافيا فوق الماء، بعد غرقه. هتف بي بوجه باسم وعينين خلف نظارة شمسية تحيطهما التجاعيد الأربعينية كقوسين

- أهلا (مريم) أنت أول مساعدة طيار « First officer» أنثى أعمل معها، وأنا....

ها هو يردد كل ما سئمت سماعه، عن مساعدات الطيارين..

قاطعته محتدّة

- وهل تعاني مشكلة في هذا؟ هل هناك فارق بين أن أكون



ذكـرًا أو أنثــى؟ أظننــا تجاوزنــا الفــروق اللغويــة، بــين الــذكر والأنثى، التي فرضتها اللغة العربية منذ زمن.

يضحك ويقول وهو يرفع كفيه أمامه مدافعا عن نفسه

- كنت أريـد أن أقـول فقـط، إننـي فخـور بإنجـازك لـم تعطنـي فرصة

أعتـرف أننـي أبـدو متـوترة، أكثـر مـن الـلازم.. فـي وسـعي ألا أبـدي تـوتري نهائيـا، لكنـي أحـب تكنيـك «التنفيس» عـن البخـار الحبيس كلما استطعت؛ يُضفي علي هذا عادية مطلوبة.

هـذا أول يـوم عمـل لـي فـي شـركة طيـران خاصـة، لكنهـا ليسـت المرة الأولـى التـي أطيـر فيهـا، وقـد كنـت مـن أوائـل دفعتـي فـي مدرسـة الطيـران... رغـم أننـي أعـيش فـي الولايـات المتحـدة منـذ سـنوات، مـا زال انتقــاد ملامحـــي الشــرقية، أو معتقــداتي، أو لكنتــي، أو حتــى جنســي، يشــعل غضــبي، حتــى إننــي أعتبــر الإشــارة إلــى أي ممــا ســبق تشـكيكا فـي قـدراتي علــى قيـامي بوظيفتي التي عشت عمري أحلم بها.

هذا حلمي، ولن أدع أحدا يأخذه مني... مرة أخرى.

أصـعد مـع (يحيـى) علـى مـتن الطـائرة الخاصـة، التـي سنسـافر بها الليلـة، وأبـدأ طقـوس التأكـد مـن كفـاءة الأجهـزة والمعـدات ثم أعيـد الكشـف عليهـا مـرة واثنتـين.. فـي المـرة الثالثـة أضـبط نفسـي أحـدّق إليـه وأتسـاءل: لمـاذا لا أسـتطيع اسـترجاع ملامحـه في عقلـي، عنـدما يغيـب عـن بصـري؟ كـل مـرة أراه فيهـا، كأنـهـا المرة الأولى أظنني لو قابلته في الشارع لن أتعرفه.



متوسط الطول هو يميل لون بشرته إلى السمرة الجنوبية أجعد الشعر، لا شيء يميز ملامحه إلا عيناه.. كابتن (يحيى) قتل من قبل.. أنا متأكدة، وأميز هاتين العينين جيدا، حتى وإن رأيتهما للحظات فقط دون نظارة.

يرتدى نظارة شمسية كعادة الطيارين، لكنها ضرورة مما زاد حنقي؛ لأنه أصبح الآن غير موجود بالنسبة لذاكرتي.. لا بد أن أنظر إليه كل فترة؛ لأتذكر من يكون أسمع فرقعة أصابع، ثم صوته يسألني:

- (مريم)؟ هل أنتِ بخير؟
- هه ؟ لا شيء! أنا بخير جدا!

يقول بهدوء أب يهدهد ابنة فزعة.

- أتفهم توترك لكن، هلا ركزت لا أريد أن يأخذ السيد (فادي) عنك انطباعا سلبيا.

ومستر (فادي) ، هو عميلنا في رحلة عمل طويلة في أوروبا بطائرة خاصة. قلت لـ (يحيى) عاقدة حاجبي:

- ولماذا يكوّن عني انطباعًا سلبيا ولم نتعامل معا بعد؟
- خففي حدة كلامك لو سمحت.. استرخي هلا حاولت

أعترف أنه محق لكني لن أتحمل انتقاداته وتوجيهاته.. لم نبدأ العمل بعد كي ينتقدني بل وينتقد تصرفاتي لا عملي!

أراجع مرة أخرى كفاءة الأجهزة، وأتعمد أن أبين له أنني مهتمة بالتفاصيل، ثم أغطي عيني بالنظارة الشمسية.. لو أن أحدًا أغلق نافذته في وجهي، لأغلقن نافذتي وبابي أيضًا!



أعتقد أنني أبالغ حقا ..

لا بد أن أهدا.. أنا في وقت عمل الآن، وكل شيء آخر في البيت بعيد، ولن يستطيع ملاحقتي يتحدث (يحيى) إلى برج المراقبة، وأشرد مرة أخرى فيما تبقى لي من ملامحه.

بعد مرور نصف ساعة، من بداية رحلة مدتها عشر ساعات وخمسون دقيقة من فلوريدا إلى روما، أخرج (يحيى) جهاز قارئ بالحبر الإلكتروني «كيندل»، وبدأ يقرأ.. لا أعرف ماذا يقرأ، ولا تسمح لي كرامتي بسؤاله.

أعاني صداعا رهيبا، لكني لن أنام.. يتوقف عقلي من آن لآخر دون إرادتي، فأستفيق فزعة، وأول ما تستقر عليه عيناي وجه (يحيى) .. لا أعرف إن كان ينظر لي أم ينظر إلى ما يقرأ.

لماذا أقلق منه إلى هذه الدرجة؟ الحقيقة أنني سمعت عنه الكثير.. هو ممتاز في عمله، ولم يمسك عليه أحد خطأ واحدا،

ما يشعرني أنه مثالي إلى درجة إثارة الشكوك.. قيل لي إنه ليس له أصدقاء.. ولا أعداء مما أكد لي نظرية أنه حي، لكن ميت أيضًا، ويداري موته.

أنتفض وأنا أسمع صوت استغاثة «مايداي - Mayday»، يدوي من مكان ما .. كابوس الطيارين الأعظم.. ثم أتبين أن موبايل (يحيى) هو مصدر الصوت.

- صوت المنبه.. اختلاف التوقيتات يُنسيني أن أغلقه.



- أنت تمزحا لست طبيعيا أبدًا من يختار عبارة الاستغاثة؛ لتكون نغمة إيقاظه ؟!

يهش من بين أسنانه:

- ما بك؟! ألا يمكن أن تتعاملي بهدوء أكثر؟
- هدوء؟! أنت حر في منبهك وهاتفك، لكننا في السماء.. وصوت كهذا كابوس أنت غير مسئول!

«مايداي».. لو كتب على طيار أن ينطق بهذه الكلمة ثلاث مرات، فعلى الأرجح ستكون آخر كلمات ينطقها في حياته.. إشارة الاستغاثة للإبلاغ عن خطر جسم،

مايداي..

استغاثة بالنسبة لي ليست سوى تحصيل حاصل.. لو باغتك لص في شارع مقفر، ستجد نفسك تستغيث، رغم يقينك أن أحدا لن يسمعك .. استغاثة أخيرة يائسة.

مايداي..

لو تعرف يا كابتن (يحيى)، معنى هذه الكلمة بالنسبة لي، ما كنت لتطلب مني أن أتعامل بهدوء.

بعد وصولنا توجهنا إلى فندق (ميركيور)، الذي تعاقدت معه شركة الطيران الخاصة التي نعمل بها.. بدا لي أن (يحيى) متعجل للغاية.. ركب المصعد وأنا أعدو خلفه، أجر حقيبتي ورائي.. بعد لحظات أدرك أنني أشير له كي ينتظر فيبتسم وينتظرني.



يبدو أنه معروف لدى بعض العاملين في الفندق، وأنا الوحيدة التائهة هنا.. كل كلمة تقال حولي بالإيطالية التي لا أفهمها تقلقني؛ هل يتحدثون عن شكلي ؟ تصرفاتي؟ طبيعي ألا يلاحظني أحد وسط هذا الزحام... لا بد أن أهدأ...

حجرتي أمام حجرة (يحيى) .. يبتسم ويدخل حجرته، دون كلمة واحدة ظل طيلة رحلة المصعد القصيرة يحدق إلى هاتفه.. سمحت لنفسي أن ألقي نظرة على الشاشة،

فوجدته يراجع توقيتات مدن مختلفة.. لماذا يشغله أمر كهذا؟ أدخل حجرتي منهكة.. أتوقع أن أنام بملابسي، لكني لست من الأشخاص الذين ينامون بسبب الإرهاق، وأعتقد أنه مستحيل أن أنام في مكان أزوره لأول مرة.

أجلس على المقعد أمام الشرفة، أنظر إلى السماء.. بعد أقل من ساعة، أسمع صوت باب حجرة (يحيى)، يُفتح ثم يُغلق لا أستطيع مقاومة أن أفتح فرجة أنظر منها .. (يحيى) يقف عند المصعد ومعه حقيبة صغيرة ترى أين سيذهب الآن؟

بالطبع هو حر في الذهاب إلى أي مكان يشاء فجأة أراه ينظر نحو بابي الموارب.. أرتبك وأغلق الباب وأقف وراءه، يدق قلبي بعنف تبا.. لقد رآني لو كنت بكامل تركيزي لخرجت بشكل طبيعي، كأنني كنت أنوي الخروج لو كنت بكامل تركيزي، لتركت بابي مواربا كما هو صوت طرقات على الباب من خلفي، تقرع قلبي نفسه،



التساؤلات الثانية

يحيى

ثلاثة أشياء تجعلني أبتعد عن (مريم)..

الأولى أنها تراني أكثر من اللازم..

الثانية أنها تتجسس علي..

الثالثة أنني حلمت بها قبل رؤيتها بخمسة وثلاثين عاما

كنت في السادسة وقتها عائدًا من المدرسة، أسير وسط الطريق الخالي الذي تحفه المنازل المتباعدة على الجانبين،

بحدائقها شبه الجرداء، إلا من بساط من نجيل وبضع شجيرات.. أشعر بالكآبة؛ بسبب مشكلة يعاني منها صديقي المصري (كريم)، ولا يستطيع مصارحتي بها.

(كريم) يرتدي قمصانا بكمين طويلين طيلة الوقت، وفي المرات التي يظهر فيها جزء من ذراعيه أو ساقيه، ألمح آثار حروق مستديرة.

تمددت في هذا اليوم على فراشي في الطابق الثاني حولي »بوسترات فريق بيتش بويز« - من مفضلات أمي - وفريق بينك فلويد»، من مفضلاتي.. رغم أن هذه حجرتي الخاصة، أمي تحيطني فيها بخزانة، تحوي شرائط تلاوة القرآن بأصوات الحصري وعبد الباسط عبد الصمد.. خزانة أفلام الفيديو مزيج من الأفلام الأمريكية، والمصرية القديمة ذات التسجيل ..الرديء.. مع ملصقات الرسوم المتحركة فوق رأسي، تتدلى مثلثات زينة رمضان من العام الماضي، والتي تص... نفسها.. لا يسافر أحد أصدقاء العائلة إلى



مصـــر، إلا محمـــلا بقائمـــة مشـــتريات لنـــا تتكـــون مـــن شـــرائط فيديو وكاسيت وأطعمة محفوظة، لا تقتنع أمي ببدائلها هنا.

انتظـرت أن تنهـي والـدتي تحضـير العشـاء، فأغمضـت عينـي لكني لم أنم.

بعد دقائق قمت، لا أعرف لماذا تقودني ساقاي إلى النافذة..

رأيـت رجـلا يرتـدي معطفًـا بنيًـا يفعـل شـيئا لا أتـذكره الآن، لكنـه أرعبنـي وقتهـا .. (مـريم) التـي رأيتهـا لأول مـرة منـذ أقـل مـن يـوم – تقـف خلفـه وظهرهـا لـي، ثـم تلتفـت نحـوي فأصرخ...

رأيـت ملامحهـا جيـدًا، وحُفـرت فـي عقلـي.. شـعرها الأسـود الثـائر الممـوج عيناهـا الضـيقتان البنيتـان العميقتـان، شـفتاها المكتنزتان ، أنفها المرفوع مدبب الطرف، بنيتها القوية.

لسـنوات تلـت ذاك اليـوم، ظلـت أمـي تقنعنـي أننـي تخيلـت مـا رأيـت ولـم يحـدث شـيء فـي الشـارع يومهـا، وأننـي ببسـاطة كنت أحلم.. لكنني كنت موقنا أنني على حق.

قالـت لـي أمـي بعـدها مباشـرة، وهـي تفـرك عينيهـا الواسـعتين العسليتين المرهقتين:

- (يحيـى) . حبيبـي هـل تعـرف أنـه يمكـن للمـرء أن يحلـم دون أن يدرك هذا، فيخلط الواقع بالحلم؟
- أنا متأكد أنني كنت مستيقظا.

رأيت القلق في عينيها وهي تسألني:

- لماذا أنت متأكد إلى هذا الحد؟



- لأنني صرخت عندما نظرت لي السيدة، ثم خرجت من حجرتي أبحث عنك، ثم خرجنا إلى الشارع معا.. لو كنت نائما فمتى استيقظت؟

صمتت برهة، ثم ربتت على كتفي وسألت في اهتمام

- هل هذه هي المرة الأولى التي ترى فيها شيئا كهذا؟ أعني.. المرة الأولى التي ترى فيها حلما يشبه الحقيقة تماما؟
- أجل

الحقيقة أنها لم تكن المرة الأولى، ولا الأخيرة، لكنني كنت أمقت أن يتدخل أي شخص في عالمي الصغير، لا لشيء... إلى أنني كنت أشعر أنهم سيتضررون لو فعلوا.. ولا أعرف سبب هذا الشعور.

عندما كبرت صار عالمي كابينة الطائرة، وهاتفي المحمول وكتبي.. وعيني. لا يمكن لأحد أن يقتحمها، وإلا أذى نفسه، كما أوذيت أنا من نفسي.

رأيت في رؤاي أمورًا كثيرة، أحداثا وقعت قبل مولدي، وأحداثا لم تقع إلا بعد أيام أو أعوام.. الحدث الوحيد الذي لم يقع بعد، هو مشهد الرجل ذي المعطف البني، والسيدة التي نظرت لي..

(مريم).

والآن، وبعد خمسة وثلاثين عامًا.. من تكون؟ هل تعرفني؟ هل رأت في عيني ما لم يتمكن سواها من رؤيته؟



في أول لقاء لنا حاولت ألا أبين شيئا من اضطرابي، وحاولت أيضًا أن أجاملها؛ كي أغطي ارتباكي

- أهلا (مريم) أنت أول مساعدة طيار « First officer» أنثى أعمل معها، وأنا....

لم تكن أول مساعدة أنثى أعمل معها، لكني كنت في حاجة لقول أي شيء يمنحني فرصة للتفكير.. كانت عصبية متوترة إلى حد العدائية، ولديها يقين أنني ضدها.. دفعني هذا إلى مراقبتها أغلب الوقت.. نظارتي الشمسية، وزاوية الإضاءة المناسبة، والقارئ الإلكتروني تساعدني عندما أراقب الآخرين.

بعد وصولنا إلى روما رأيت في عينيها أنها تريد أن تتكلم أكثر، أو تتعرف علي.. كانت تريد الاعتذار عن جدتها، لكني سبقتها وحاولت أن أبتعد.

هل أخشاها أم أخشى عليها مني؟ لا أعرف.

أصعد إلى حجرتي سريعًا، أحتاج إلى النوم، لكن لا وقت لذلك.

أشغل مكيف الهواء ليبرد الحجرة إلى الحد الأدنى.. أضبط هاتفي المحمول على الساعة العاشرة والنصف ليلا بتوقيت روما...

مايداي..

بعد هذا التوقيت بساعتين، سيقتل (أنطونيو جيرالدي) ابنه الطفل (ماركو)، وأخويه الاثنين (تيريسا) و (داميان).

مايداي..



هذا هو الوقت الذي سيستغيث فيه (ماركو) لآخر مرة في حياته.

مايداي...

أخلع أغلب ملابسي وأتمدد على الفراش.. ما زالت أمامي ساعة ..

أتنفس بعمق..

ببطء..

أصوات الشارع الصاخبة تعلو في أذني تدريجيا .. أشم رائحة الماء الآسن... العفن.. الطحالب...

أرى (أنطونيو) في بيته.. أسمع صراخ أبنائه المحبوسين في قفص كلاب داخل مسقط مبنى قديم..

تعود إلي بغتة ذكرى صديق طفولتي، الذي كان يطفئ أبوه السجائر في جسده الصغير الهش...

لا بد أن أبتعد وأركز.. يجب أن أطرد إحساس الخوف الذي يتملكني.

أرخي عضلات جسدي.. أتنفس بعمق وأهمس لنفسي:

- مايداي مايداي مايداي أحدهم يستغيث بك يا (يحيى).. لا تخف... لا تتوتر.. لن تفشل مرة أخرى... أنت في أمان أنت تسمع كل شيء، وترى كل شيء..



أفـتح عينــي بــبطء.. أنــا واعٍ جـدًا.. واعٍ أكثــر مــن الطبيعــي والأهــم أننــي لســت خائفًــا، ولا أتــذكر ســبب وجــوب هــذا الخوف.

أضـع كـل مـا يلزمنـي فـي حقيبـة صـغيرة، وأبـدل ملابسـي ثـم أخـرج مـن الحجـرة أسـمع بحواسـي المشـحوذة اليقظـة، صـوت أنفاس (مريم) في حجرتها، تقف خلف الباب بالضبط

(مريم) تراقبني.

عنـدما وصـلت إلــى المصـعد كانـت قـد واربـت بـاب حجرتهـا وتنظـر نحـوي. لا بـد أن تخـاف وتبتعـد. أنظـر نحوهـا فترتبـك، وتغلق الباب بسرعة.

لا بد أن تخاف (مريم) وتبتعد.



التساؤلات الثالثة

مريم

الطرقات تستمر.. أفتح الباب.. تبا!

- كابتن (يحيى)؟ هل من خطب ما؟

يجيبني في برود:

- لا .. هل من خطب ما بك؟
- خطب ؟ ماذا تعني؟ آه.. هل تقصد لأنني تركت الباب مواربا؟ لقد كنت ...

يقاطعني بنفس نبرة الصوت الباردة

- لأنك سمعت صوتا غريبًا بالخارج مثلا؟

ماذا يفعل هذا الرجل بي؟ لم يُربكني أحد من قبل.. قط!

- أجل.. هذا ما حدث.
- أم سمعت صوت بابي يُفتح ثم يُغلق ؟
- كلا بالطبع.. أقصد أنني سمعته، لكنني لم أكن أعرف أنه بابك.

يطلق ضحكة ساخرة ضحلة مبتورة، ثم يقول:

- تصبحين على خير لا تشغلي نفسك بما يحدث بالخارج.

أغلق الباب وأسمع خطواته تبتعد.



التساؤلات الرابعة

يحيى

أعرف الطريق جيدا، وأعرف ما سيحدث.

ربما لم تكن الأمور واضحة أمامي في الماضي، لكني الرؤى كانت تراودني من وقت لآخر، ولم أكن قادرًا على السيطرة عليها، أو استرجاعها، أو تذكر تفاصيلها.

أما الآن، أنا أعرف مشكلة (أنطونيو) وأولاده.. في زيارتي الماضية إلى روما منذ ثلاثة أشهر، راقبت (أنطونيو)، وعرفت أنه سائق شاحنة، مدمن على عقار الترامادول، الذي كان يظنه مساعده المخلص، على البقاء مستيقظا في ورديات الليل، أب لثلاثة أطفال اختفت أمهم في ظروف غامضة. يشيع أنها هربت وتركت له أبناءهما.. يزعم أن صحة الأولاد متدهورة؛ لذا لا يراهم أحد يخرجون.. جيرانه وأصدقاؤه استمروا في مساعدته بالمال لأجل أولاده، بعدما تدهورت حالة إدمانه، وعجز عن الفرار من دوريات الأمن على الطريق وتحاليل المخدرات الدورية، لكن كلنا نعرف ما يفعله بهذا المال.

أما الرؤيا التي رأيتها عما سيحدث، فكانت كالتالي **(أنطونيو)** ثمل يكسر الأطباق على المنضدة الخشبية الصغيرة ويصرخ

- صمتا! أصواتكم تطير الخمر من عقلي



صوت طرقات على معدن.. صرخات أطفال عن بعد، تقلع أعصابه من جذورها، فيصيح بصوت مختل

- هل تبكي الكلاب؟ هه ؟ ألا تتذكرون مصير أمكم الكلبة الكبرى؟

يقترب من مصدر الصوت داخل مسقط البناية، منحنيا، يترنح بصوت خافت شيطاني يهمس:

- (ماركو).. كلبي الصغير.. هيا انبح كي أعطيك عظمة.. هيا

فينبح (ماركو) بصوت مرتجف مبتل بالبكاء.. عيناه الكبيرتان البنيتان تنظران إلى وجه أبيه عبر قضبان قفص الكلاب، حيث يركع على ركبتيه.

- هل هذا صوت كلب؟ لا عظام لكم اليوم.. موتوا من الجوع.

يتهاوى الطفل على نفسه ومن خلفه أخواه الأصغران ينزفان الدمع يهتف (ماركو) راجيا

- بابا.. أرجوك هات ..العظمة.. (تيريسا) ستموت جوعا.
- ليس للكلبة الصغيرة طعام.. انتهى النقاش

جلب (أنطونيو) في يوم فتاة ليل فقيرة، أسكنها حجرته، ضربها عندما علّقت على صوت صرخات الأطفال، وهم أيضًا شعروا بوجودها فظل (ماركو) يصرخ ويطرق على القفص الحديدي بعظمة.



- النجدة نحن هنا (تيريسا) ستموت

لكن للأسف لم يسمعهم أحد سوى المرأة وأبيهم.. المنزل خال، متداع، لا يسكنه سواهم.. قبيل الفجر دخل عليهم أبوهم بطبق مليء ببقايا الطعام، وعرف (ماركو) أنه لن يطعمهم منه.. كان يعرف ما يحدث في كل مرة يستغيثون فيها.

فتح السكير القفص، فصرخ (ماركو) وأخوه، أما أخته فلم تتحرك.. رأيت (أنطونيو) يدهن أولاده بالطعام وهو يضحك،

وعرفت فئران المسقط أن الطعام جاهز، فاقتربت.

نظر (ماركو) إلى أصابع قدمي (داميان) الملتهبة، وتذكر عضات الفئران لها، وهي تحاول أكل ما علق بجسده من قبل..

(داميان) محموم يهلوس.. (تيريسا) فقدت الوعي.. ثمانية أشهر مرت وهم حبيسو القفص.. القفص المثبت فوق موضع دفن أمهم.

حاولت العودة بالزمن أكثر لمعرفة كيف ماتت، لكني فشلت.. لم أسمع استغاثتها .. لا يهم الآن، المهم أنني سمعت استغاثة الصغار البؤساء، ورأيت في هاتف (أنطونيو) المحمول تاريخ اليوم والساعة.

أرى (ماركو) لأول مرة يستجمع شجاعته ويحاول الهرب، يدفع أباه، فيصرخ ويتطاير اللعاب من فمه



- أيها الحيوان جنيت على نفسك

ينظـر (مـاركو) مرتعـدًا إلـى أبيـه فاقـد التـوازن علـى الأرض... تصــطرع بداخلــه رغبتــه فــي النجــاة مــع ســنوات المعاملــة القاسية التي حولته عبدا.

- بابا الرحمة! أنا.. أنا آسف.. آسف.

قــام (أنطونيــو) ومــزق قميصــه، ثــم أوثــق بــه (مــاركو)، الــذي انتصــرت داخلــه ســنوات الخــوف والخضــوع، فجمدتــه داخــل القفص أبكم مشلولا .. صرخ (ماركو) أخيرًا،

وهو يرى أبـاه يـدخل علـيهم بفتـاة الليـل التـي كانـت معـه، مقتولـة ببشاعة مشوهة الملامح.

- أقــدم لــك التـــي كنــت تســتغيث بهــا.. أرأيــت مــا دفعتنـــي لفعلــه؟ هــذه هــي المــرة الثانيــة التــي تــدفعني لفعلهــا أيهــا الحيوان

المـرة الثانيـة بـالطبع كـان يقصـد بـالمرة الأولـى تلـك، التـي قتـل فيهـا أمهـم.. رمـى الجثـة فـوق الصـغار، وأغلـق بـاب القفـص علـيهم.. بعـد أقـل مـن سـاعة اجتمعـت الفئـران ولـم يقـو (مـاركو) حتى على الصراخ.. كان مصدوما.. يائسا.

فــي لحظاتــه الأخيــرة، أغمــض عينيــه، وتمنـــى لــو يســمع أحــد استغاثة لم تغادر شفتيه.

مايداي... مايداي.. مايداي.

هأنا أصل إلى بيت (أنطونيو) قبل أن يقتل أبناءه.. خطتي ببساطة هي أن أتسلل وأهربهم... بالطبع لم أستطع أن أفعل هذا في وقت مبكر منذ واتتني الرؤيا؛

لأنني كنت مشغولاً في رحلات الطيران أغلب الوقت، وانشغلت في رحلتي السابقة لروما بمراقبة (أنطونيو) ، وجمع معلومات عنه، حتى أتأكد من صدق ما رأيت.

أما ما لم يكن له تفسير، فهو عميلنا السيد (فادي)، الذي قرر السفر إلى روما اليوم بالذات.. صدفة غريبة حقا... كأن القدر يمد لي يد المساعدة.

أضع هاتفي المحمول في جيب قميصي، وأشغل كاميرته لأسجل ما أفعل ربما أحتاج إلى دليل براءة فيما بعد، لو تورطت في مشكلة.

أنا قادم يا (ماركو).. تجلد.

بحسب الرؤيا التي رأيتها المفترض أن أسمع صراخ الولد الآن إذ يستغيث، لكني لا أسمع أي صوت.

تراني أخطأت فيما رأيت؟

أتردد لحظات.. وأشك في قدرتي.. وفي أنني رأيت كل هذه التفاصيل والأسماء والمواقيت.. أدخل إلى مسقط المبنى بصعوبة وأشم رائحة شنيعة.. الظلام كثيف، لكنني أتبين حدود القفص الذي رأيته في رؤياي تراني وصلت متأخرًا ومات الأولاد؟!



أقتــرب أكثــر، وأرى ثلاثــة ظــلال متكــورة فــي ركــن المســقط، وشـيئا أكبـر متكومًـا داخـل القفـص... تجـري الفئـران بـين قـدمي وأسمع صوت تقطيع وقضم ... لا.. ليست أصوات فئران.

لــيس أمــامي ســوى أن أخــرج الكشــاف مــن الحقيبــة وأنيــر المكان.

ربــي.. لا أعـرف أيـن الخطـأ فـي حسـاباتي.. لكـن مـا أرى هـو آخر ما أتوقع!

يقتـرب (مـاركو) منــي بشـفتين وأسـنان ملوثـة بالـدماء، ثـم يقـول لي بصوت مبحوح وبالإيطالية التي أفهمها... للأسف

- (يحيى).. فعلتُ مثلما طلبت مني بالضبط! شكرا لك!



التساؤلات الخامسة

مريم

خروج (يحيى) في هذا الوقت المتأخر وبعد رحلة مرهقة، إضافة إلى تغير شخصيته فجأة، دفعني للارتياب فيه أكثر هذا الرجل يخفي شيئا.

لكن ماذا قد يكون؟ ولماذا شعرت بتهديد في كلامه؟ هل لأنني كنت أراقبه كما يراقبني؟ هل يراقبني فعلا؟!

أشعر اليوم أنني عدت إلى طبيعتي.. لست قلقة أبدًا.. أخرج وأتحرك بحرية أكثر في شوارع روما.. أقرأ الأخبار على الإنترنت وأنا جالسة في مقهى مفتوح مزدحم، أشرب رابع فنجان إسبريسو

إمم... خبر جريمة غريبة للغاية وقعت أمس.. طفل يقتل أباه ويحبسه في قفص حديدي، بعدما دهنه بالطعام وترك الفئران تأكله الأغرب أن الطفل انهمك في نشاط غير إنساني تماما أكل وأطعم أخويه لحما بشريا!

لطيف جدًا.. جريمة غير متوقعة، وأنا أحترم هذه الجرائم للغاية.. الوحشية والغرابة والسادية والانتقام تدفعني لشرب فنجان إسبريسو خامس، وأفكر في كيفية حدوث الجريمة وتفسيرها.

أنا مؤمنة أن بداخل كل منا قاتلًا بارعا، يختبئ خلف قضبان الدين والخوف من القانون ونظرة المجتمع.. كمية إبداع هائلة مكبوتة ترى لو أطلقناها، كيف سيكون شكل العالم ؟

عند الظهيرة، أرى كابتن (يحيى) يتناول غداءه في مطعم الفندق.. عاد من رحلته الليلية فجرًا، ويبدو أنه لم يخرج بعدها ثانية.

ألوح له من عند المدخل فينظر لي من فوق عدستي نظارته الشمسية ويرد الإشارة، ثم يكمل طعامه.. أسير نحوه مبتسمة؛ لا مانع من بعض اللطف اليوم بعد كل التخبط الذي اقترفته أمس معه.. لا أعرف كيف سمحت لنفسي به أهتف في رقة:

- تشاو كابتن هذه هي الكلمة الوحيدة التي التقطتها من الإيطالية.

فيرد سلامي بهدوء وجدية

- لو بحثت، لعرفتِ أنها تعني «مع السلامة» كما تعني «مرحبا».
- هكذا إذن؟ مع السلامة؟ لا بأس يا كابتن... لا بأس.

قلتها وأنا أتغافل عن معنى ما قال، وأجلس أمامه، وأحاول رؤية عينيه من خلف النظارة.. أقول له وأنا أعرف كم أثير حفيظته

- هل سمعت بما حدث أمس؟ الطفل الذي قتل أباه؟
- قرأت عنه.
- ماذا تظنه السبب وراء فعلته ؟ هل هو مختل؟
- يجوز
- أتصور أن هذا الولد يكره أباه، أو أن الأب كان يعامله معاملة سيئة، وانتهز فرصة الانتقام منه عندما سنحت



يزفر (يحيى)، ويضع الشوكة على المنضدة ثم يقول:

- أولا، لا يوجد تبرير للقتل، ثانيًا، لا داعي لإرهاق أنفسنا في التفسير.. ما هي إلا أيام ويعلنون ما توصلت إليه التحقيقات.
- أيا كانت التفاصيل التي سيعلنون عنها، أنا أرى أن القاتل والقتيل وجهان لعملة واحدة.. لا .. بل هم وجه عملة البشرية الوحيد.

يعقد حاجبيه ويبهت وجهه ويقول:

- فسري.
- أول جريمة في تاريخ البشرية. كانت أخا يقتل أخاه، أليس كذلك؟

يبتسم بركن فمه ابتسامة تكاد تظهر، ثم يقول:

- أتفق أن أول جريمة كانت القتل، أما أول خطيئة فكانت الفضول.. أليس كذلك؟

أبتسم أنا ابتسامة مشرقة كالشمس من خلفي وأقول:

- لديك حق.. الفضول قتل القط.

برافو يا (يحيى) .. هكذا تكون رقصة التانجو الثنائية بحق .. لكن ما الذي تخفيه وتخشى أن يكشفه فضولي ؟ لماذا يضايقك مجرد كلام بريء - عن جريمة قتل ؟ لماذا تخشاني يا (يحيى)؟

لم أضغط عليه أكثر؛ الضغط هو العامل الأخطر في تحويل الإنسان من كائن مسالم إلى مجرم،



قبل أن أقوم، أرى مستر (فادي) يقترب منا .. رجل بشوش ظريف للغاية، هو منتج سينمائي خمسيني... ثمة شائعات بالطبع عن مصدر أمواله، لكن في النهاية، ما دخلي في هذا؟

يقول الرجل بصوته العميق الرزين

- كابتن (يحيى) .. كابتن (مريم).. هل قاطعتكما؟

فيجيب (يحيى) ضاغطا على كلماته :

- أبدًا.. كابتن (مريم) كانت سترحل فورًا، أليس كذلك يا (مريم)؟

أقول باسمة وأنا أريح ظهري إلى ظهر مقعدي

- صحيح.. إلا لو أن مستر (فادي) سيشرف مجلسنا فسأبقى.

ينتفخ الشريان في جبهة (يحيى)، وهو يحدق إلى طبقه، فيقول (فادي) عاقدا دراعيه

- لو لم تكن لديكما مواعيد في الساعة الرابعة عصرا، ما رأيكما أن تحضرا تصوير الفيلم معنا؟

يسود صمت مشحون... أنتظر أن يقبل (يحيى) أو يرفض، كي أحدد قراري بناء على ذلك.. ترى هل ما زال في جدوله رحلات غامضة؟ أخيرًا يقول فجأة:

- بالتأكيد. هذا شرف لي.

فأقول سريعا



- كما قال (يحيى)، هذا شرف لنا، لكن وقتي ضيق وأريد شراء بعض الهدايا لأصدقائي.. لو أنهيت تسوقي مبكرًا سألحق بكما.

أرى كابتن (يحيى) يجلس مع مستر (فادي)، وممثلين آخرين والمخرج عند ناصية شارع بابوينو في روما.. بالطبع لا يعرف أحد أنني تبعتهم إلى موقع التصوير، وأدرك (يحيى) على الأغلب، أنني رضخت لتهديده.

أقف وسط زحام الشارع الشهير بعيدا عنهم، حتى قرر (يحيى) الرحيل استقلّ تاكسي فركبت السيارة التي أجرتها صباحًا وتبعته .. ينحرف التاكسي إلى شوارع أكثر ازدحاما،

وهي مزية تجعل تتبعي ! له أسهل. يصل بالسيارة إلى مكان شعبي يترجل.. أوقفت سيارتي على مسافة منه؛ كي لا يراني لو نظر خلفه لأي سبب.. يقف (يحيى) أمام منزل قديم، تحيطه شرائط صفراء، تميز مسارح ..الجرائم.. هذا مسرح جريمة إذن لماذا يزوره؟!

خطر لي خاطر مهم.. بحثت عن اللافتة التي تحمل اسم الشارع، ثم عدت إلى خبر مقتل الأب على يدي ابنه.. نفس الشارع المذكور في الأخبار نفس مسرح الجريمة على الأرجح...

شكي في محلها لو أن اهتمام (يحيى) بالجريمة اهتمام عادي، لماذا تعمد أن يظهر غير مبالي أمامي ؟

أراه يتكلم مع رجل، ويسجل ما يقول على الموبايل، ثم يشير [illegible] ل آخر، ويسير برفقته نحوه.



لماذا تتقمص شخصية صحفي يا (يحيى)؟

للأسف لم أستطع أن أتبعه إلى حيث دخل المنزل المذكور

عند نهاية حارة معبدة بحجر الإسكافي أنتظره... لم يتأخر كثيرًا.. ينزل ثم يركب تاكسي آخر، فاتبعته إلى مستشفى حكومي.. يغيب داخله نصف ساعة، بعدها يعود إلى الفندق. أتعمد ألا أعود إلى الفندق مباشرة.. أذهب لشراء أي شيء...

لو أنه يراقبني علي أن أقنعه أنني كنت حيث زعمت.. أعود وأمكث في حجرتي أبحث عن تفاصيل مستجدات التحقيق على الإنترنت.

إمم...

(أنطونيو جيرالدي) الأب، كان يحبس أولاده في قفص حيوانات فوق قبر أمهم المرتجل، الأم التي قتلها هو منذ شهور.. ظل يعاملهم ،ككلاب ويعاقبهم بدهن أجسادهم بالطعام، وترك الفئران تقتات عليهم.. اكتشفت فتاة ليل وجودهم فقتلها وحاول دس جثتها مع أبنائه، لكن الابن الأكبر؛ (ماركو)، ثلاثة عشر عامًا، ضرب أباه ثم أدخله إلى القفص، وأذاقه مما كان يفعل بهم، ولم يكتف بهذا .. قرر أن يأكل من جثة الأب ويطعم أخويه؛ لأنهم كما زعم- كانوا جوعي للغاية.

قال (ماركو) أيضًا: إنه قبل قتله لأبيه بساعات، كان يحتضر.. ورأى في حلمه رجلًا يُنبئه أن أباه سيقتلهم..



ووصــف لــه بالضــبط مــا ســيحدث.. ونصــحه أن يضــربه ويحبسه في القفص..

... ثـم يطلـب الشـرطة. بعـدها.. رأى (مـاركو) فـي حلـم آخـر.. أن الرجـل مــن الحلـم الأول... يأكـل مــن جثــة أبيــه. عنــدما استطاع الولد حبس أبيه.. شعر برغبة عارمة في أن يفعل

مثلما فعل رجل الحلم.. ففعل.

يُذكر في الخبر أن (ماركو) ليس نادمًا، وفخور بما فعل.

ماذا يعني هذا الكلام؟ وما علاقة (يحيى) به؟

رأسي سينفجر..

لــو أننــي ســأقول الحقيقــة، فســأقول إننــي أعــيش أجمــل أيــام حياتي الآن!



التساؤلات السادسة

يحيى

لاس

فيجاس

منذ عام

ظننت أن لقائي بالمنوم المغناطيسي في لاس فيجاس العام الماضي، قد يحل بعض مشاكلي، لكن للأسف، كنت متفائلا أكثر من اللازم.

كان ليلي عبارة عن رؤى مستمرة، أرى فيها جرائم بشعة كلما أغمضت عيني.. بعضها يحدث وأعرف به، وبعضها لا سبيل لي لمعرفة إن كان قد حدث أم لا.. العامل المشترك بين هذه الرؤى، أنني أرى الضحية تستغيث بي.. باستثناء الرؤيا التي رأيتها طفلا ورأيت فيها (مريم).

من القاتل؟ من الضحية؟ لا أعرف.

قرأت كثيرا عن تلك الرؤى، وعرفت عن الأحلام المتجلية من كتب ما وراء علم النفس التي يرى فيها المرء بشكل عشوائي أحداثا من الماضي، أو من مكان بعيد، أو ستقع في المستقبل.. ربما تكون هذه الرؤى على هيئة أحلام أو خواطر أو شعور مؤكد.

وقتها سألت نفسي؛ هل هناك طريقة أتذكر بها تفاصيل هذه الأحلام؛ كي أستطيع استرجاعها وقتما أحب؟ بل، هل يمكنني التحكم في زيارة هذه الرؤى وقتما أريد؟



منــذ عــام دعــاني أصــدقائي إلــى عــرض ترفيهــي فــي لاس فيجـاس ولـم أكـن مـن مُريـدي مسـارحها ولا عروضـها، إلا فيمـا ندر، ولا تخرج اختياراتي عن مشاهدة مسرحيات درامية...

العـرض لمنـوم مغناطيسـي شـهير، لكننـا فـي النهايـة نتحـدث عـن عرض ترفيهي، عن لاس فيجاس عن خدع مبهرة لا أكثر...

لكـن مـا رأيتـه هنـاك كـان مختلفـا عـن أي شـيء أ آخـر توقعتـه. بعــد العــرض، وقفــت فــي صــف طويــل أحــاول الوصــول للرجـل.. الكـواليس مظلمـة ومُضـاءة فـي نفـس الوقـت.. تلـك الكشــافات المُســلطة علــى أركــان بعينهــا، تجعلنــي أشــعر أننــي أسبح وسط جزر مـن نـور وسط بحـر يمـوج بالبشـر، ورائحـة العطــور والأجســاد المفعمــة بالأدرينــالين.. كــم أكــره الزحــام وأكــره دغدغــة الإنجليزيــة لأذنــي المتعبتــين، اللتــين تتوقــان لهـدوء ألبومــاتي القديمــة العربيــة، وشــرائط الفيــديو، وترتيــل المقـرئين.. تنـاقض بـين داخلـي وخـارجي.. تنـاقض بـين هـدوئي وثورة نفسي دائمة التأجج.

كيفــين (تــرانس)، صــاحب العــرض الأشــهر علــى الإطــلاق، والأكثــر غرابــة، يقــف فــي بســاطة يضــحك ويمــازح ويصــافح ويعـانق.. هـذا الرجـل كـان يـتحكم فـي الحضـور فرديـا وجماعيـا فيضـــحكون ويبكـــون ويتـــذكرون أمـــورًا ظنوهـــا محيـــت مـــن عقــولهم... أقــول لنفســي إن هــذا لــيس جمهــورًا عاديــا، بــل مساعدوه أو جمهور مأجور.. لكن قلبي كان يهمس بي:

(يحيى)، هذا حقيقي.. أنت لست ممن يتعرضون للإيهام،

ع ولا تعرف لذلك سببًا».



بعدما أنهى لقاءاته مع معجبيه، ذهبت إليه وقدمت نفسي ثم سألته وأنا أنظر إلى عينيه السوداوين، وسط وجهه الأبنوسي اللامع بالعرق:

- سيد (ترانس)، رأيت في عرضك، أنك قادر على أن تجعل الحضور يفعلون أمورًا لا يدركون أنهم يفعلونها.. هل في وسعك أن تجبر أحدًا على فعل شيء لا يقبله وهو واع، ولا يتذكر أنه فعله؟

ضحك ورفع عينيه إلى الضوء فوقه، كأنه سمع هذا الهراء آلاف المرات من قبل، ثم أجاب:

- يا للجحيم لا بالطبع كل الأمر أنني أوحي للآخرين ببعض التصرفات لفترة محدودة.. لا يمكن أن يستمر هذا التأثير كثيرًا، ولا يمكنني أن أجبر أحدا على فعل شيء ضد مبادئه، أضف إلى ذلك أن بعض الناس غير قابلين للإيحاء أصلا.. أنت رأيتهم في قاعة العرض، لكن عقلك لم يدركهم؛ لأنك كنت تبحث عمن يؤكد أنني أستحق الوقوف على خشبة المسرح.. أنت جئت لحضور عرض تنويم مغناطيسي، فلم يسمح لك عقلك إلا برؤية المتأثرين... خدعة أخرى... تأكيد انحيازي تبحث فيه عمّا يعزز تصديقك لواقع معين.

سألته وأنا بعد أحاول الوصول لإجابة عن السؤال الذي يطن في عقلي:

- سمعت أن التنويم المغناطيسي علاج لبعض الحالات



- يمكنه أن يساعد بالطبع على التكيف مع الضغوط والقلق، أو التحكم في الألم، أو تعديل السلوك بالتدريج، وقد يفيد مع بعض الاضطرابات النفسية.

ثم ضحك مرة أخرى وأضاف:

- لكن لا يحدث كل هذا على خشبة المسرح يا صديقي.

سألته وكأن شخصا آخر يسأله، شخصا بعيدا تائها:

- سؤال أخير.. هل يمكن أن ينوم أحد نفسه ؟

وهنا يبدأ فصل جديد من حياتي، وظهر لأيامي المتشابهة هدف.. ماذا لو أن ما أمر به قد يساعدني في إنقاذ الآخرين؟

لقد فشلت في مساعدة صديقي الصغير الملائكي (كريم)، ومن يومها والرؤى تطاردني.. هل سأرتاح إن كفرت عن ذنب تخاذلي، وأنقذت المستغيثين ؟

لم يكن الأمر بالسهولة التي تصورتها .. كلما حاولت التحرر من قيود جسدي وعقلي الواعي شعرت أنني مكشوف والكل يراقبني مما يزيد من طباعي الانعزالية أكثر.. لكنزفي النهاية أي شيء أهم أن أصير اجتماعيا محبوبا، ولا أهتم لأحد إلا نفسي، أم أركز على موهبتي التي وهبنيها الله لسبب؟

آسف يا (كريم)، عجزت عن إنقاذك، لكني متأكد أنني أستطيع التكفير عن ذنبي معك.



روما – إيطاليا

إصرار (مريم) على الحديث معي مريب بحق.. أما ما لم أستطع إبعاده عن عقلي، فرؤيتي لها منذ خمسة وثلاثين عاما.. ترى هل (مريم) القاتل أم القتيل ؟

بعدما ذهبت مع السيد (فادي) للتصوير، استأذنته في الرحيل، ثم قصدت منزل (أنطونيو جيرالدي) الذي أصبح رسميا مسرح جريمة.. أنا من أبلغت عما رأيته ليلتها من هاتف عمومي، ورحلت قبل وصول الشرطة.

منظر (ماركو) كان مفزعًا، قاسيًا، لكن ما أثار حيرتي، كيف عرف الولد اسمي؟ وماذا كان يقصد عندما قال لي إنه نفذ ما طلبته منه ؟!

سكان ضواحي روما بسطاء عفويون إلى حد كبير خاصة أنني قد قدمت لهم نفسي منذ أشهر، على أنني صحفي مصري، يعمل في إحدى الصحف المحلية، ويهتم بتغطية المشاكل الاجتماعية، التي يواجهها سكان الضواحي.

الشوارع مائلة بشدة، المباني عتيقة مكسوة بالطحالب وأثر أمطار الشتاء.. السيارات متناهية الصغر تصطف إلى جوار سور مائل بدوره شيء ما يذكرني بصور الإسكندرية في ألبوم صور أمي.

أقابل جيران (أنطونيو) بعد الجريمة، فيسارعون ليحكوا لي وهم يلوّحون بأيديهم وأذرعهم، ويضمون أصابعهم تأكيدًا.. عندما يتكلم الإيطالي، فإنه يستخدم كافة أطرافه،



ويعتصـر تعبيـرات وجهـه حتـى الثمالـة.. قـال لـي الجـار النحيل ذو الشــعر الــداكن المصــفف إلــى الخلــف، إن أخــت (مــاركو) عنـد أحـد الجيـران، وأشـار لـي إلـى منـزل قـديم واجهتـه مغطـاة بلبلاب جاف، تقف عند بوابته دراجة.

أما الأخ الأصغر المريض ففي المستشفى العام.

ذهــب معــي الجــار إلــى حيــث (تيريســا)، ذات الشــعر البنــي المضــفور، والوجــه النحيــل والعينــين المســتديرتين.. لــم تقــو علــى الحــديث، وظلــت متكــورة بــين ذراعــي الجــارة المســنة، التــي قالــت لــي: إن الفتــاة لــم تقــل ســوى أن (مــاركو) ظــل يطمئنهمــا، أن هنــاك رجــلا زاره فــي الحلــم وســيأتي لينقــذهم. بـالطبع (مـاركو) فـي النيابـة، ولـم أسـتطع مقابلتـه، أمـا أخـوه فمـا زال يُعــالَج مــن تســمم الــدم، الــذي أصــابه مــن تلــوث عضــات الفئران.

من الرجل الذي حلم به (ماركو)؟!

اليـوم أنـام مبكـرًا؛ لأننـا سنسـافر غـدًا.. لا يمكـن أن أسـمح لشـيء أن يهـدد كفـاءة عملـي، وسـلامة عملائـي.. لكنـي أسـتيقظ قـرب الفجـر أدخـل دورة الميـاه، ثـم ألقـي نظـرة علـى المـرآة وأنـا فـي طريقي إلى الفراش، فتتعلق عيناي بعيني انعكاسي :

كأنني أرى شخصا آخر سواي خلف المرآة.



هذا بالضبط ما كنت أفعله عندما أنوم نفسي مغناطيسيا،

لكنه يحدث الآن دون إرادة مني.. درجة الحرارة تنخفض...

أسمع أصواتا بعيدة...

أصوات ضجيج مقهى أو مطعم...

رائحة طعام...

عطور..

حديث بالفرنسية...

صوت صرخة ثاقبة بل صرخات

يختفي الحمام من حولي، وأري بدلا عنه مطعما بسيطا..

يصمت زبائنه فجأة، وهم ينظرون إلى شاب نحيف يخرج من المطبخ، وهو يقبض على عنقه، ومن بين شفتيه يتدفق الدم سعاله مكتوم، كأنه يختنق...

ثم يهوي أرضًا، وأرى في يده الأخرى شطيرة.. يحاول الشاب إخراج شيء من فمه.

التف الناس حوله، لا ليساعدوه، لكن ليصوروه يضحكون!

أخيرًا أخرج الشاب شظية معدنية من بين أسنانه، لكن يبدو أن في فمه المزيد.

في آخر لحظات حياة الشاب.. يستغيث...

مايداي..

لقد قتلني..



مايداي...

لماذا لا يساعدني أحد؟!

مايداي..

استغاثة أخيرة، لم يسمعها سواي.

وايومينج – الولايات المتحدة

أعـود إلـى الولايـات المتحـدة، إلـى بيتـي وفراشـي وحجرتـي التـي لـم تتغيـر أبـدًا.. لعبـي مكتبـي الصـغير ألبومـاتي، معلقـاتي.. كل شيء بالضبط كما هو، حتى إن فراشي القديم مكانه،

واشتريت آخر أكبر جواره.

ما الذي يحدث لي الآن؟ ما الذي استجد؟

طيلـة العـام الماضـي كنـت أتـدرب علـى تنـويم نفسـي؛ كـي أسـتطيع العـودة إلـى رؤاي واسـترجاعها، فأنقـذ مـن تصـلني استغاثتهم، لكن.. هل انفلت الأمر مني وجننت ؟!

لا بـد أن يخضـع الطيـارون لفحوصـات نفسـية دوريـة قاسـية وأي خلـل قـد ينهـي مسـتقبلي المهنـي... لا بـد أن أسيطر علـى كل شيء، ولا أسمح بخطأ واحد.

أنهـي التزامـاتي العائليـة، وأسـاعد أمـي فـي مهامهـا اليوميـة، وفـي العنايـة بـالمنزل تنظيـف ترتيـب، جـز العشـب.. حـديث طويـل عـن الجيـران والأقـارب فـي مصـر، ووصـفات الطهـي، والماضـي والإسـكندرية مسـقط رأسـها، والأقصـر مسـقط رأس أبـي، رحمـه الله.. تخبرنـي أنـه أوصـاها ألا تغـادر الولايـات؛ لأنـه أن مسـتقبلنا هنـا أفضـل... لـم تكـن مقتنعـة، لكنهـا نفـذت



وصيته على أي حال فخالتي أيضًا كانت تعيش هنا، لكنها عادت إلى مصر منذ سنوات طويلة .. لا أتذكر كثيرًا تفاصيل علاقتها بأمي، ويشوب طفولتي ضباب كثيف بالفعل، ربما بسبب رؤاي المستمرة.

نتحدث حتى تنام في فراشها، فأقبل شعرها الأشيب، وأترك نور الأباجورة مضاء، ثم أعود إلى حجرتي، وأدون ما حدث في روما بالتفصيل.

في رؤياي، رأيت رجلا يحبس أولاده في قفص، ويقتلهم في النهاية بعدما قتل أمهم.. حاولت أن أصل إليهم قبل أن يقتلهم الأب، فوجدت أن الابن هو من قتل أباه، والأغرب أنه يعرف اسمي، ويدعي أنه اتبع تعليماتي.

كيف اختلفت الجريمة بهذا الشكل رغم كل الجرائم التي رأيتها وحدثت كما هي؟ هل لأنني تدخلت وحاولت منعها لأول مرة؟ كيف عرف (ماركو) اسمي؟ من الرجل الذي حلم به ؟

ثم جاءت رؤيا الرجل في المطعم الفرنسي.

هل أحاول معرفة تفاصيل أكثر، أم أنتظر ما ستسفر عنه التحقيقات مع (ماركو)؟ ربما أستطيع زيارته في وقت لاحق. بعدما أفرغت عقلي على الورق، شطبت كل شيء، ثم كتبت اسم (مريم) بخط كبير، وعلامة استفهام ترافق اسمها مثلما يرافقها الغموض.

أسمع طرقات على باب حجرتي، فأمزق الصفحة وأتخلص منها .. تدخل أمي حاملة صحفة عليها كوبا ينسون، وتزعم



أنهــا أرقــت ففكــرت فــي أن تشــرب شــيئا.. تجلــس جــواري وتنظر إلى الدفتر وتقول لي:

- يبدو أنك مشغول... هل تود أن أتركك تنهي ما تفعل ؟
- لســت مشــغولاً إلــى هــذا الحــد أدون بضــعة أشــياء أود شراءها غدًا.

والــدتي ســيدة حساســة أبعــد مــا تكــون عــن الفضــول، أو التــدخل فــي شــئون الآخــرين حتــى فــي شــئون إخــوتي قبــل أن يتزوجــوا ويتفرقــوا فــي أنحــاء الولايــات، لكــن عينيهــا وقعتــا بالصــدفة علــى الصــفحة الخاليــة المحفــور عليهــا اســم (مــريم) بســبب ضــغطي على القلم فوق الصفحة التي مزقتها..

تظــاهرت أننــي لــم ألحظهــا؛ لــو أغلقــت الــدفتر لعرفــت أننــي أتعمد إخفاء شيء.

ســألتني وهــي تمســك بــالكوب بكلتــا يــديها، فيغطــي البخــار عدستي نظارتها:

- أخبرني يـا (يحيـى)، ألـم تـنم جيـدًا أمـس؟ رأيتـك تقـف أمـام المنـزل، وعنـدما ناديتـك لـم تسـتجب.. الغريـب أننـي عنـدما نزلـت إليـك لـم أجـدك بالخـارج.. كيـف عـدت إلـى حجرتـك دون أن أراك؟

ربــي لمــاذا تخبرنــي بهــذا الآن فقــط مــع أننــا أمضــينا اليــوم ســويا؟ يبـدو أنهـا كانـت تتحـين فرصـة مناسـبة مـن وجهـة نظرهـا؛ كـي تخبرني بالموضوع فرصة لا تسمح لي برؤية عينيها.

الابن كالأم حقا، لكم هو غريب ما نرثه من آبائنا!

- أنا؟ لم يحدث هذا! أنا لم أقم من فراشي طيلة الليل



وكنت صادقا، لكنها قالت غير مصدقة:

- ربمـا اخـتلط علـي الأمـر، أو رأيـت شخصـا آخـر وظننتـه أنت...
- فيم تفكرين؟

خلعت نظارتها، وقالت وهي : تحدق إلى عيني

- هـل أنــت بخيــر؟ أشــعر أنــك مختلــف مــن قبـل ســفرك الأخيـر وبعـدما عـدت أراك أكثـر اختلافًـا عـن أي وقـت مضى.

كعادتي الذميمة، أبالغ وأحرك يدي وأضحك، وأنا أقول كاذبا

- أنـا كمـا أنـا وبخيـر لا تقلقـي علـي.. هيـا لنشـرب الــ... مـا هذا الذي في الكوب؟ وما الذي يسبح على سطحه هذا؟!

تضـحك ضـحكة صـغيرة خائفـة، وترشـف الينسـون لا أسـتطيع أن أقول إنها لـيس لهـا حـق فـي القلـق علـي.. طيلـة حياتهـا تشـعر بــأي شـــيء تغيــر فـــي نفســـي، لكنـــي أقـــاوم أن أحكـــي لهـــا هـــذه المرة.

بعدما نامـت – هـذه المـرة نامـت بحـق - أوصـدت بـاب حجرتـي وجلســت علــى مقعـدي المــريح الضــخم الــذي يحمــل شــخبطاتي أنـــا وإخـــوتي بـــالأقلام الملونـــة علـــى قماشـــه، ورائحـــة عطـــر وسجائر أبي مع مرور أكثر من ثلاثين عامًا على وفاته.



الجو بارد...

أغمض عيني وأحاول أن أرى وجه الشاب القتيل مرة أخرى.

شاب مشرد ينادونه (أوليفيه) .. كان مدمنا لكنه رأى موته بعينيه فقرر أن يبرأ من إدمانه، ثم يلتحق بعمل شريف.

أراه يمر على المتاجر، يتوقف عند كل واحد منها ويسأل عن عمل... أي عمل...

- مساء الخير يا سيدي.. ألا تحتاجون إلى عامل نظافة؟

فيجيبه رجل غليظ الصوت

- لا

تغلق الأبواب والقلوب في وجهه من قد يسمح لشاب هزيل مشرد بالعمل لديه ؟

- هل تحتاجون إلى عامل؟
- لا ولو رأيناك هنا مرة أخرى سأبلغ الشرطة

لا أقول إنه ليس لديهم حق في القلق من توظيف مجهول مثله، لكن (أوليفيه) صادق بحق في توبته، ويرغب في أن يكون إنسانا، لا خرقة بائسة تطؤها الأقدام في مريب الشوارع.

تعب من السرقة والمخدرات لكن ماضيه ظل يتبعه كوحش عملاق يظلل على بياض قلبه.



ظل أسابيع يبحث عن عمل، حتى وجد فرصة في مطعم صغير.

يقول له صاحب المطعم ذو الأنف الضخم مرفوع الطرف الشبيه بأنوف الخنازير

- ستعمل في المطبخ شهرًا كاملا، ولن أدفع لك يورو واحدًا إلا بعدما تثبت أنك لست لصا ولا مثيرًا للمشاكل... ليس لك إلا وجبة واحدة يوميًا، وستنام في المخزن... لو لم يعجبك عرضي عد إلى الشارع الذي أتيت منه.

يهتف الشاب فرحًا:

- أوافق طبعًا! أوافق!

عمل (أوليفيه) في نظافة المطعم، وفوجئ أن كل العاملين المشردين بلا أهل مثلهم كمثله بالضبط.. أوضاعهم هناك بائسة لكنهم مضطرون للعمل بلا مقابل، ويقبلون بمعاملة صاحب المطعم المُهينة؛ ليعيشوا حياة شريفة بعيدا عن الشوارع.

بعد أيام من بدء العمل لاحظ (أوليفيه) أن واحدة من العاملات في المطعم لم تعد تداوم معهم.. قال له زملاؤه إن من آن لآخر يرحل أحد العاملين إما تحت دافع العودة للمخدرات، أو تمردًا على الوضع المتدني، أو لأنه ببساطة



يـئس مـن المحاولـة أو طـرد.. الأسـباب كثيـرة، والمـدهش هنـا أن يستمر أولئك الشباب في العمل، لا العكس.

لـيس لـدى (أوليفيـه) اسـتعداد للعـودة إلـى الشـارع أو إلـى الإدمـان.. يكفيـه أن يظللـه ،سـقف، ويمـلأ معدتـه طعامًـا.. فكـر فـي أنـه لـو صـبر شـهرًا واحـدًا والتـزم سيحصـل علـى وظيفـة ثابتة ووقتها سيتغير كل شيء.

أنظر إلـى مـا حـول (أوليفيـه)، مطـبخ قـذر، قـدور مقلوبـة مسـودة القاع حوائط تغطيها طبقة من الدهون المتراكمة...

ثمـة كـاميرات مراقبـة فـي كـل مكـان كـاميرات باهظـة متطـورة لا تتناسـب أبـدًا مـع المطـبخ البـدائي المُهمـل... مـن حقـه أن يراقب المكان، لكن هذا التنافر بين المطعم وصاحبه، وبين

الكاميرات يثير حفيظتي.

أتـرك (أوليفيـه) وأحـاول التركيـز مـع العمـال وصـاحب المكان....

مـن سـيقتل (أوليفيـه) ؟ ولمـاذا بهـذه الطريقـة البشـعة؟ هـل الأفضـل ألا أنتظـر حتـى يـوم الجريمـة، وأحـاول منـع الشـاب من العمل في المطعم أساسا؟

ثـم ينطلـق صـوت منبهـي علـى الهـاتف.. العبـارة التـي سـجلتها سابقا بصوتي...



مايداي.. مايداي.. مايداي.

أعـود إلـى الواقـع بغتـة.. أتـرنح نحـو مكتبـي الصـغير وأفـتح حاسوبي المحمـول، ثـم أبحـث عـن اسـم المطعـم كمـا رأيتـه علـى اللافتة؛ العصفور الأزرق.

ها هو رقم هاتفه وعنوانه.

أضـيف توقيـت فرنسـا إلـى التوقيتـات علـى هـاتفي المحمـول؛ أعـرف الوقـت المناسـب الـذي أتصـل فيـه بـالمطعم، لأسـأل عـن الشـاب.. لا أعـرف حتـى الآن إن كانـت الجريمـة قـد وقعـت، أم أنها حدث مستقبلي يمكن منعه.

لا يجب أن أضغط على نفسي!

أكثر اليوم، لا بد أن أحافظ على تركيزي.

كي أنام..

أحلـم ككـل الليـالي بصـديقي (كـريم).. بدايـة الحلـم - كالعـادة- غرائبيـة، أعـدو فيهـا إلـى جـواره فـي شـوارع الإسـكندرية فـي الثمانينيـات، وهـو مـا لـم يحـدث بـالطبع مـن قبـل.. يلـوح لنـا **(عمـــرو ديـــاب)** ببنطالـــه ذي الكســـرات الأماميـــة، وشـــعره المنسـدل علـى جبينـه.. بـائع غـزل البنـات يرمـي نحونـا سـحبا بيضاء وردية، تحملنا إلى شريط الترام...



يختفي صديقي وسط السحب الملونة، التي تصير تدريجيا في لون الدم، ثم أراه من بينها محمولا بين ذراعي أمه التي تبكي في الشارع...

تصرخ وتمنعني السحب الخانقة من الوصول إليه..

أستيقظ على مكالمة من شركة الطيران، يبلغونني أن السيد **(فادي)** ينتوي السفر الأسبوع القادم..

إلى فرنسا.



المشهد السابع

مريم

توجد عشرات الصفحات على فيسبوك، يمكن لأي واحدة منها أن تكون صفحة (يحيى) .. لماذا لا يوجد قانون يجبر مستخدمي فيسبوك على كتابة معلومات حقيقية عنهم،

ووضع صور واقعية كما في جوازات السفر وأوراق إثبات الشخصية؟!

لا أثر لـ (يحيى) في أي مكان حتى رقم موبايله الخاص بالعمل مغلق دائما، ولا يوجد حساب فيسبوك متصل به..

حاولت أن أعرف أين يسكن في أمريكا، لكنني فشلت.. لماذا يتعمد كل هذا الغموض ؟ لماذا يتحاشى صداقات العمل ؟ والأهم، ما علاقته بجريمة الصبي الذي قتل أباه ؟

الجريمة المميزة من الأمور التي تلفت نظري دائما...

دوافعها.. طرق تنفيذها... طرق الهرب أيضًا.. ثمة توازن خاص بكل جريمة يجعلها متفرّدة وكلما كانت الدوافع غامضة وغير مقبولة عند الناس تأكد أن مرتكب الجريمة شخص مميز فعلًا.

اليوم وصلني ميعاد رحلتي التالية، مع مستر (فادي) و(يحيى) أيضًا...

معتادة أن أجري في كل من أيام إجازتي في المتنزه العام. أحاول ألا أدقق في وجوه الناس إذ يحدقون إلى ملامحي...



أجري... ألهث... أتعرق...

ما خطبكم؟ أجل، لست أمريكية الأصل، لكني أحمل الجنسية مثلي كمثلكم ما مشكلتكم؟!

(يحيى) من أصل مصري، مثلي، لكني أشعر أنه غير مرتاح في وجودي، وأنتظر اللحظة التي سينتقد فيها لوني، أو معتقداتي، أو اسم عائلتي. هل لهذا السبب يكرهني؟

أجلس على مقعد خشبي أشرب الماء من زجاجة خلف نظارتي بلاستيكية.. أراقب تصرفات الناس من العاكسة.. لا يحترم أحد نفسه إلا إذا عرف أنه مراقب وسيعاقب.

اختبار صغير في مكان ليس فيه كاميرات مراقبة ولا شهود، يمكن أن يكشف عنا الكثير.

رحلة باريس كانت عادية، لكن كابتن (يحيى) هو الغريب.. طبعا لا يلحظ أحد هذه التفاصيل سواي.. بالنسبة للناس كلها،

هو كابتن (يحيى) الأسطوري الذي لا يخطئ. أثناء الرحلة ومرحلة القيادة الآلية، ظل يُحدّق أمامه إلى السماء الممتدة بلا حدود.. تحدثت إليه فلم يرد، بعد دقيقة أفاق فجأة، ومد يده نحو واجهة الطائرة، ثم تردّد، وسحبها وسكن.

- كابتن، هل أنت بخير؟
- هل تحتاج إلى بعض الراحة ؟
- لا



- لا .. لا تشغلي بالك بي.

يصمت لحظات ثم يضيف:

- (مريم)، لقد شردت قليلا في موضوع.. هل كنت تقولين شيئا؟

أجيب ضاحكة:

- ليست عادتك أن تشرد.. هل تحب أم ماذا؟

فيضحك، وينفر الشريان في منتصف جبهته، ويقول:

- ليس للدرجة.
- هل رأيت شيئا عبر الواجهة؟
- لماذا تسألين؟
- لقد مددت يدك نحوها، وكنت تحدق إليها منذ دقائق.

يقول في ارتباك وهو يمسح حاجبيه

- آه.. أجل... خيل إلي أنني رأيت حشرة.
- حشرة؟

حشرة داخل الطائرة؟ أم خارجها ؟! رصيدك من التصرفات الغريبة يكاد ينفد يا (يحيى).

نصل باريس ونركب أوتوبيس الفندق، ومعنا (مارثا) المضيفة.. في الرحلات الطويلة ترافقنا مضيفة جوية بالطبع... أمريكية هي... . أتحدث معها عن أمور عشوائية حتى أقود دفة الحديث نحو أمر (يحيى).

أقول لها:



- لـــديك حـــق... مهنتنـــا هـــذه تحتـــاج إلـــى تركيـــز طيلـــة الوقت...

ســـهل أن يُشـــتت المـــرء فـــي علاقـــات لا داعـــي لهـــا.. كـــابتن (يحيى)

مثلا.. لم أر في ا

انضباطه.

قالت (مارثا) في حماس:

- حقيقـــي لا أخفـــي عليـــك، الســـمعة الســـيئة التـــي تطـــارد الطيـــارين والمضـــيفين، لكـــن لا دخـــان مـــن دون نـــار.. شـــاهدت زمـــلاء يرتكبـــون الموبقـــات. الاختبـــار هـــو الـــذي يحـــدد إن كنـــا سنصـــير مـــثلهم، أم.. ســـنكون مثـــل كـــابتن (يحيى) .. عموما لكل منا خطاياه، ولا أحد معصوم.

تـردد (مارثـا) آيـة مـن الإنجيـل شـيئًا عـن رجائهـا لله، ألا يـدخلها فـــي تجربـــة وينجيهـــا مـــن الشـــرير.. لا أتـــذكر بالضـــبط، ثـــم تضيف:

- كلما أدركت أننـي أحكـم علـى أفعـال النـاس، ولـم أدخـل فـي تجربة مثلهم، أتذكر هذه الآية.

حظـي الرائـع أوقعنـي فـي رفيقـة متدينـة! لـن أسـتطيع أن أخـرج منهــا بمعلومــة، ولــن تحكــي لــي عــن أي موقــف حضــرته مــع (يحيى)، يبين لي أنه بشري مثلنا، يخطئ أحيانًا.

نصـــل إلـــى الفنـــدق، ولا يدخلـــه (يحيـــى) معنـــا .. يركـــب ســـيارة أجـــرة فـــورًا، ولا أعـــرف إلـــى أيـــن قصـــدا لـــم أتوقـــع هـــذا، ولـــم أســـتعد لـــه! لا أســـتطيع أن أتـــرك الجميـــع فجـــأة، وأركـــب ســـيارة

أجـرة وأتبعـه .. أنـا حتـى لا أعـرف رقـم حجرتـه يجـافيني النـوم طيلـة الليـل... أريـد أن أعـرف أيـن ذهـب ومـاذا يفعـل .. مسـألة مثاليتـه المبـالغ فيهـا هـذه لـم ترحنـي قـط.. أنـا متأكـدة أنـه يخفـي مصيبة.

لكن النوم.. والإرهاق.. .....

أنام أخيرًا وأحلم...

أرى صـبيا فـي العاشـرة أو أقـل، يقـف فـي ركـن منزلنـا القـديم فــي ولايــة وايــومينج يراقــب أبــي وهــو يجــر جــوالا ثقــيلا ويبكــي.. ينقلـه إلـى الحديقـة الخلفيـة ويحفـر الأرض، ثـم يدفنـه. أتـذكر هـذا اليـوم جيـدا، يـوم ماتـت كلبتـي.. الحقيقـة أن رأسـها قطـع فـي فـخ دبيـة، ولـم تمـت ميتـة عاديـة.. لكـن مـا الـذي دفعهـا لدس رأسها فيه أصلا؟**!** كانت غبية وتستحق ما حدث لها.

لكن من يكـون هـذا الطفـل؟ أنـا مدركـة أننـي أحلـم، لكـن مـن أيـن جاء هذا الطفل فـي الحلـم، وأنـا لـم أره مـن قبـل؟ كـان ينظـر إلـى الجـوال المغلـق فـي أسـى كأنـه يعـرف مـا فيـه.. يبكـي كأنـه يعرف كلبتي.

أسـتيقظ مـن الحلـم وجسـدي يرتعـد.. لا أعـرف مـا الـذي وثرنـي إلـى هـذه الدرجـة؛ فيمـا قـد يكـون أضـغاث أحـلام.. مـن هـذا الولد؟ وهل يعرف ما حدث للكلبة يومها ؟

ظللـت أكـرر لنفسـي أنـه مجـرد حلـم.. هـذه. المـرة الأولـى هـي التـي أحلـم فيهـا بـذاك اليـوم، والمـرة الأولـى التـي أسـتعيده فيهـا أصلا.

بالتأكيد هذا حلم بلا معنى...



المشهد الثامن

يحيى

عندما اتصلت بالمطعم لأعرف إن كان هناك من يعمل لديهم باسم (أوليفيه)، أجابني صوت خشن قاس

- من أنت؟
- هل يعمل هنا ؟ هذا هو سؤالي فقط.
- من تكون؟!
- صديقه.. لم أره منذ فترة، وأحدهم أخبرني كان يبحث عن عمل وآخر قابله فأخبره أنه يعمل في هذا المطعم. بحثت عن الرقم واتصلت أسأل عنه، لا أكثر.

سألني الرجل في ريبة:

- لكنتك غريبة، من أين أنت؟

قلت في نفاد صبر

- لقد سألتك سؤالا بسيطا هلا أجبتني
- لست مضطرًا لإجابة كل سؤال يسأله من لا أعرف عنه شيئا.

ثم أغلق الخط لم أتصل مرة أخرى، خاصة أنني ميزت صوته، وعرفت أنه الرجل الذي رأيته في رؤياي من قبل.

قررت أن أنطلق إلى المطعم فور وصولي فرنسا؛ لأراه على الطبيعة، وأحاول التأكد إن كان (أوليفيه) يعمل هناك.



أجلس إلى منضدة في المطعم، وأطلب طعامًا قدمته لي فتاة تعاني سوء التغذية، شاحبة الوجه، تكاد تنكفئ إرهاقًا.

الطعام عادي.. ليس سيئا أو مميزا. رواد المطعم من الطبقة البسيطة. من رأيتهم في الرؤيا من زبائن ليسوا كمن أراهم الآن، بل أثرياء، يرتدون ملابس فاخرة، ويحملون هواتف محمولة من آخر طراز ملامحهم قاسية باردة.

لكن كل شيء في المطعم كما رأيته.. الديكور، الرائحة... الموسيقى.

أدفع حساب ما أكلت وأقوم.. أدور حول المبنى أكثر من مرة.. ألاحظ أن هناك بابا خلفيًا يُخرجون منه النفايات ليضعوها في صندوق كبير.. الساعة السادسة والنصف مساءً.

مُرهق للغاية، لكني أحتاج إلى أن أقابل (أوليفيه) هذا في أقرب فرصة وأمنع الجريمة قبل وقت كاف من حدوثها. لو أنه يعمل هنا، فلا شك أنني سأقابله، لكن كيف أقنعه أن يترك العمل؟ المشكلة الكبرى في حال أنه لم يعمل هنا بعد،

وليست لدي فكرة عن موعد قدومه! لن أمضي وقتي كله أمام المطعم.

ستقع الجريمة خلال أيام أو أسابيع أو أكثر، ولا بد أن أتصرف مبكرا نهاية الليلة..

أرى صاحب المطعم يغلق أبوابه ويرحل... لم أر أحدًا من العاملين يخرج من الباب الأمامي أو الخلفي قبل الإغلاق.



إذن الأمـر كمـا رأيـت فـي رؤيـاي... (أوليفيـه) ورفاقـه يبيتـون في المخزن.. لكن ....

معقول أن أحدًا منهم لم يكمل شهرًا وثبتوه في العمل، براتب يسمح له بالسكن في الخارج ؟

أنتظـر ساعة أخـرى أجلـس علـى مقعـد انتظـار الحافلـة قـرب المكـان وأتشـاغل بـالقراءة، بعـدها أغطـي وجهـي بوشـاح وأمشـي ناحيـة البـاب الخلفـي... أنظـر حـولي فـلا أرى أحـدا، ولا حتـى كـاميرات مراقبـة أتظـاهر بالسـعال والـدوار، وأطـرق على الباب الخلفي...

أصوات خطوات من الداخل... همهمات...

ثم يُفتح الباب أسعل وألهث وأنا أقول:

- لو سمحت..

نـت .. أنـا.. لا أسـتطيع التـنفس.. هـل يمكـن أن... أجلـس لحظة؟ أريد ماء.

يقول لي الشاب داكن البشرة الذي فتح لي:

- طبعا .. لحظة، سأحضر لك مقعدًا.

يـدخل فـي لهفـة ويتـرك البـاب مواربـا.. أقتـرب أكثـر وألقـي نظـرة.. أسـمع صـوته يتحـدث مـع آخـرين ويخبـرهم عنـي.. يبتعد صوت خطواته، فأقترب خطوتين إلى الداخل أكثر.



ما خلف الباب ممر عرضه حوالي ثلاثة أمتار، عن يميني المطبخ الذي رأيته في الرؤيا، وأمامي باب مخزن مفتوح وعدة حشيات على الأرض وتلفاز صغير قديم هم يعيشون هنا بالفعل.

أتراجع سريعا نحو المدخل قبل أن يراني أحد.. يعود الشاب ومعه كوب ماء ومقعد.. ظل واقفا جواري ليطمئن علي.. كم هو عطوف... من هم مثله رأوا الكثير، وفاقد الشيء قد يمنحه بسخاء أحيانًا.

أحاول أن أدعي التحسن التدريجي، وأقول له بفرنسية أقرب للإنجليزية:

- شكرًا.. ما اسمك ؟
- (جابريل).
- شكرًا (جابريل) .. آسف أن اقتحمت عليك بيتك بهذه

الطريقة.

- هذا ليس بيتا بل مطعم.. لا عليك.. هل تحسنت؟

- كثيرا. أنت طاه ؟

- نعم. هل أحضر لك ما تأكله؟

لكن سأدفع ثمنه.. اتفقنا؟

يبتسم في إنهاك ويردد مُتباسطا بلكنة مثل لكنتي الفرنسية

السيئة:

- اتفقنا.



لماذا أشعر أنه سعيد بوجودي؟ ربما قارن معاملة صاحب المطعم بمعاملتي؟ هل شعر أنه شخص طبيعي، لا حثالة بشرية كما أقنعه أنف الخنزير ذاك؟

أسير خلفه وأحاول أن أبطئ خطواتي؛ حتى أستطيع أن أتفحص الجالسين في المخزن الحجرة واسعة مقسومة إلى نصفين بحاجز خشبي النصف ناحية الباب واضح لي، وفيه يتربع ثلاثة شبان منهم (أوليفيه) يشاهد التلفاز. ينحني،

فتتعلق عيناه للحظات، قبل أن أدخل خلف جابريل إلى حجرة جانبية أخرى بها مناضد قديمة ومقاعد.

- معذرة قاعة الطعام تغلق ليلًا ومسيو (شارل) يأخذ المفاتيح معه.. ومعذرة مرة أخرى؛ لن أستطيع أن أحضر لك طعاما مما نطبخه للزبائن... ربما يتسبب لي هذا في مشكلة.. لكن سأحضر لك بعضًا من طعامنا.

أهتف:

- لا .. لا داعي.. سأكتفي بكوب شاي.

يذهب ليصنع الشاي، فأنظر حولي مفكرًا في الجريمة التي ستحدث بين هذه الحوائط فجأة رأيت (أوليفيه) يقف عند باب الحجرة ويحدق إلي تظاهرت أنني لم ألاحظ، وتشاغلت في هاتفي المحمول، أستخدم شاشته كمرآة تعكس ما يحدث عند الباب الرؤية ليست واضحة بالطبع، لكن أفضل من شيء. بعد دقائق رحل (أوليفيه).



يعـود جابريـل وأعـرف منـه أن العـاملين يقيمـون فـي المخـزن المقسـوم إلـى نصـف للفتيـات ونصـف للـذكور. هـذا أفضـل مـن التشـرد فـي الشـوارع علـى أي حـال قـال لـي الشـاب المهـذب فجأة:

- مسيو .. هل تعرف مكانا يمكن أن يوظفني؟
- أنت طاه، أليس كذلك؟
- لا أحمـل شـهادة فـي الطهـي لسـت بارعـا للغايـة، لكـن يمكننـي أن أعمـل فـي مكتـب أو شـركة.. أعـد المشـروبات مثلا، أو أحضر الطعام في بيت أحدهم.

أسأله في حذر

- والعمل هنا لا يناسبك؟

يجيب في ارتباك

- لا هو .. عمل جيد.. لكن أحاول البحث عن الأفضل.
- دعنـي أرى مـا يمكـن فعلـه لـو وجـدت لـك عمـلا، كيـف أتصل بك؟ أهاتفك على رقم المطعم ؟

يصيح مذعورا:

- لا! لـيس هنـا، لا.. لـو وجـدت لـي عمـلا فـأرجو أن تسـتطيع المجـيء إلـى هنـا وإخبـاري بعـد انتهـاء مواعيـد العمل. عاجز عن الشكر

يبدو أن استغاثة مايداي هـذه المـرة لـم تكـن مـن (أوليفيـه) فقـط.. هنـاك غيـره عشـرات.. ربمـا مئـات أو آلاف فـي الشـوارع يستغيثون من دون مجيب.



سوف أعود إليكم...

هذا وعد.

أعـود منهكـا إلـى الفنـدق بعـد انتصـاف الليـل.. أرتمـي علـى الفراش فأفقد الوعي حتى اليوم التالي.

هـاتفي المحمـول الخـاص يـرن بـرقم لا أعرفـه.. أضـغط أيقونـة الرد برأس ينفجر من الصداع، لأفاجأ بصوت (مريم)

- صباح الخير أين كنت ؟
- أين كنت ؟ هل أنا مراقب؟!
- لقـد اختفيـت أمـس، ولـم أرَك علـى الإفطـار.. قلقـت خاصـة أن رقـم موبايلـك غيـر متـاح، فأخـذت رقمـك الخـاص مـن مستر (فادي).

أقول ببرود:

- أنا بخير.. شكرا.
- حسـنا .. أنـا فـي الكافتيريـا لـيس عنـدي مواعيـد اليـوم.. مـا جدولك ؟
- سأنام.
- ثم ؟
- سـأحلم! هـل تريـدينني فـي أمـر ضـروري؟ يمكنـك أن تقولي الآن ما المشكلة.
- لقـد قلقـت فقـط، هـذا كـل شـيء. أقلقتنـا جميعًـا أقصـد أعتـذر عن اتصالي بك سلام.



لا تعتـذر ولا أي شـيء، هـو فقـط أسـلوب النسـاء بـالطبع هـي عندما يُحرجن فيقلبن الأمر ويفسرنه على أنه إهانة للكرامة؛

كي يشعر الرجل أنه مخطئ ويعتذر، وإلا يصر وغدًا.

لست في مزاج يسمح بهذه الأمور...

أغمض عيني مرة أخرى، لكن لا أنام...

أرى نفسي في قبر مظلم...

أفزع...

أحاول القيام من داخل التابوت الخشبي الذي يحيطني من كل جانب...

أعجز عن التنفس.

هناك شيء جواري، ورائحة غريبة مرعبة ..

هـذا قمـاش.. وبداخلـه.. عظـام تلمـس يـدي مـا بـدا لـي أنـه جمجمـة، فأسـمع صـوت طلقـات رصـاص وصـراخ وانفجـار قنابـل الصـوت داخـل رأسـي.. صـاحب الجمجمـة مـات فـي حرب.

كـان يسـتغيث بـأي شـخص ينجـده، لكـن لـم يكـن للمسـعفين خيـار إصابته مميتة ولن يستطيعوا إنقاذه في ميدان الحرب.

هم أمام خيار مضن... من يعيش ومن يموت.

مايداي..

أسمع من فوق القبر طرقات.. هل سينجدني أحد؟!

مايداي..



هل يسمعني أحد؟

يكسر خشب التابوت، ويعمي ضوء كشاف بيدين ممدودتين نحو الجثة جواري.

لا يراني أحد...

عيني..

طبيعي ألا يراني أحد، هذه رؤيا لا حقيقة! لكن مع كل مرة أرى فيها هذه الرؤى، أذوب في تفاصيلها أكثر، وتصبح أقرب للحقيقة.

لقد حذرني المنوم المغناطيسي من ذلك..

كل الكتب المختصة حذرت منه...

من الاختلال والجنون.. ومن أمور أخرى لا تصدق. الرجل الذي أخرج الكفن من القبر، يخرج منه عظمتين ويلقي الباقي في الحفرة ويرحل.

عينا الجمجمة فوق صدري تحدقان إلى عيني.

مايداي...

استغاثة من الموت للمرة الثانية.

أنزل إلى الكافتيريا ومطارق الصداع تحيل مخي إلى هلام.

ماذا يحدث؟ أنا لم أحل مشكلة (أوليفيه) بعد، فتلاحقني مشكلة جثة تستغيث من لص قبور أنظر من النافذة الضخمة إلى الشارع الواسع المزدحم...



أشرد في اللاشيء، حتى يلفت انتباهي منظر صاحب المطعم

- (شارل) – يتحدث مع أحد رجال الإنتاج من شركة السيد (فادي).

ما الذي يجمعهما ؟!

أعود وأسأل نفسي هل سفر السيد (فادي) إلى باريس في هذا التوقيت بالذات مصادفة ؟

بعد لحظات أرى (مريم) تدخل الكافتيريا.. تراني فتهز رأسها محيية في برود، وتجلس بعيدا عني.

إنها «القمصة» النسائية إذن!

لكنني بدأت في التفكير بشكل مختلف مؤخرا في الرؤيا التي رأيت فيها (مريم) ، ولا أعرف إن كانت فيها الضحية أم القاتل. لماذا نظرت نحوي كأنها تراني، رغم أنني خفي تماما في كل الرؤى الأخرى؟

هل أقترب منها؛ لأنها ضحية محتملة... أم لا خيار لي سوى الاقتراب حتى لو كانت هي الجاني؟

يجب أن تعود إلى صفاء ذهنك يا (يحيى).. لن تستطيع إنقاذ الجميع، ولن تساعد أحدا لو فقدت نفسك وعقلك.

دار الحوار بيني وبين نفسي مطولاً؛ حتى انسحب تركيزي يجري مع (شارل) ورجل الإنتاج خلف النافذة، وانصب على انعكاس وجهي على المرآة.



أقـاوم أن أنـيم نفسـي لا إراديًـا وأرى المزيـد.. علـى الأقـل لـن أفعلها في مكان عام.

أطلـب إفطـارًا متـأخرًا وأطـالع الأخبـار.. مـر وقـت ورحلـت (مريم).. أنظر إلى الشارع سريعا قبل أن أقوم أنا أيضًا...

قلبي يكاد يتوقف!

أرى (أوليفيـه) يقـف عنـد متجـر بيـع السـجائر يقـرأ جريـدة ومـن وقت لآخر ينظر إلى مدخل الفندق.

إنه يراقبني!



التساؤلات التاسعة

مريم

كل ما أخطط له هو أن أبتعد عن (يحيى)، وأظهر الغضب...

أضع حواجز أكثر بيننا وأبين له أنه أحرجني.. حتى لو حاول التقرب أو الاعتذار سأصده لن يهتم على الأرجح، وكأنني هم وانزاح عن كتفيه...

هنا تأتي المرحلة الثانية من الخطة؛ الفضول الذي قتل قططا كثيرة عبر التاريخ.. الفضول الذي سيدفع (يحيى) دفعا لملاحقتي ومعرفة ماذا دهاني.

أعرف أنني أحتاج إلى صبر هائل حتى أرى نتيجة. أتعمد النزول إلى الكافتيريا في وجوده، وأتحاشى الحديث ... بعدها أخرج، وأجلس في السيارة المُستأجرة كي أكون معه ..

مستعدة إن خرج مرة أخرى.

ظل في مكانه فترة طويلة، ثم رأيته يخرج إلى الشارع، ويسير وهو يلتفت خلفه من وقت لآخر، كأنه لا يقصد الالتفات، فيتحدث في موبايله وينظر حوله. هذه تصرفات شخص يعرف أنه مراقب.. أعرفها جيدا. هل شك في؟

مستحيل؛ هو لم ينظر تجاه سيارتي ولا مرة، ولن يتعرّفني وأنا متنكرة، ومن هذه المسافة إذن فيمن يرتاب؟ ولماذا يشك طيار بريء في أن هناك من يلاحقه؟

فجـأة يعبـر الطريـق متجهـا نحـو شـخص بعينـه.. شـاب نحيـل ملابسـه رثـة.. يتحـدث معـه دقـائق.. الشـاب مرتبـك، و(يحيـى) مبتسـم يخفـي تـوترًا يظهـر فـي وقفتـه.. بعـدها يرحـل الشـاب ويقـف (يحيـى) مكانـه برهـة، ثـم يركـب تاكسـي أتبعـه بالسـيارة.. أحاول الحفاظ على مسافة آمنة بيننا؛

كـي لا يلاحـظ أن هنـاك سـيارة تتبعـه. ينـزل عنـد دار عـرض سـينمائي فيقطـع تـذكرة ويـدخل، ولا أجـد سـببا يضـطرني للانتظـار فـي السـيارة ريثمـا يخـرج فقـررت إيقـاف السـيارة والنـزول إلـى قطـار الأنفـاق أحـب الزحـام أحيانًـا وأفتقـد مراقبـة وجـوه النـاس وتصـرفاتهم.. المتـرو والمواصـلات العامـة مـن الأمـاكن التـي يظهـر فيهـا بوضـوح ردود أفعـال النـاس وهـم لا يـدركون أنهـم مراقبـون أمضـيت ثـلاث سـاعات لـم أشـعر بهـا من فرط استمتاعي، لكن بعض الآخرين شعروا بالتأكيد.

ماذا عن (يحيى)؟ تبا له!

أعـود بعـد رحلتـي الممتعـة إلـى الفنـدق، وأخلـع الباروكـة وأمسح المكيـاج فـي السـيارة قبـل أن أدخـل بـالطبع.. أرى مسـتر (فـادي) يجلـس فـي البهـو مـع آخـرين... دائمـا مـا أتعجـب أنـه يقـيم فـي نفـس الفنـدق الـذي نقـيم فيـه.. كنـت أتصـور أن المنتجين يقيمون في فنادق أكثر فخامة.

ألقـي عليـه تحيـة المسـاء، ثـم أصـعد إلـى غرفتـي وأبـدل ملابسـي وأتأكـد أن لا أثـر للـدماء عليهـا. أفضـل علـى أي حـال غسـل ملابسـي يـدويًا قبـل إرسـالها إلـى المغسـلة الآخـرون فضـوليون للغاية، وأولى خطايا البشر هي الفضول كما تعلمنا.



أفتح التلفاز على قناة إخبارية. أتقن الفرنسية إلى حد كبير، فأستطيع أن أتابع ما يقال وأنا أغسل ملابسي في حوض الاستحمام.

لم يذع الخبر الذي كنت أتوق لسماعه، مما ضايقني للغاية. هناك ما هو أهم من تفاهة الأخبار السياسية وحالة الطقس.

دون مقدمات، يخطر لي خاطر غريب، وأكاد أرى صورة رجل يُضرب ويتهاوى أرضًا ممسكا بجانبه الأيمن من يكون؟!

أبدأ في تجهيز نفسي للنوم، فأشغل فيلمًا موبايلي يرن برقم لا أعرفه، فأتجاهله بعد دقائق يردني اتصال من رقم آخر..

رقم (يحيى)..

إمم... الخطة تجني ثمارها بسرعة.

لم أرد على الفور.. أترك الاسم يظهر أمامي متوسلا قبل أن أقول في برود:

- مساء الخير.

يباغتني صوت امرأة تسألني بالفرنسية:

- هل أنت آنسة (مريم)؟

تقول إنها ممرضة في مستشفى عام، وتخبرني أن الإسعاف نقلت (يحيى) إلى هناك، وهو من طلب منها أن تتصل برقمي؛



آخر رقم على قائمة الاتصال عنده. أغلق الخط وأضع حقيبتي السوداء الصغيرة التي لا تفارقني داخل حقيبة أكبر وأنزل أركب سيارتي المستأجرة إلى المستشفى.

للحظة رأيت صورة في عقلي لا أعرف لها مصدرًا.. شارع جانبي خال مصنع قديم وواجهات بيوت خلفية.. (يحيى) متكوم هناك على الأرض جوار سلم معدني وصناديق خشبية.

هناك أثر دماء على الأرض آثار خطوات ملطخة هذه تفاصيل لم أرها عندما خطر لي منظر الرجل يُضرب منذ قليل.

هذا الرجل (يحيى)!

من أين لي بهذه المشاهد ؟ هل أنا أحاول تخيل ما حدث ل (يحيى) ؟ لا بالطبع ما خطر على بالي أن سيارة صدمته مثلا.. ثم إنني رأيت ما رأيت قبل الاتصال لا يهم الآن. أتابع الجي بي إس؛ كي لا أضل طريقي، وأقود بأقصى سرعة إلى المستشفى.

أعرف في المستشفي أن أشخاصا هاجموا (يحيى) في شارع جانبي وطلب النجدة بعدها ثم فقد الوعي.

أدخل عليه ،الحجرة، وأرى أنه قد أفاق.. أجلس على مقعد قريب، ولأول مرة أنظر إلى عينيه مباشرة...

عيناه صافيتان مهمومتان ثمة إصابة في جانبه الأيمن، وأخرى عند مؤخرة رأسه.



كان هناك شرطي يدون شهادته، ثم رحل عند دخولي.

- (يحيى).. أقصد، كابتن (يحيى).. ماذا حدث؟
- بلطجيان هاجماني حاول واحد منهما طعني بمطواة والثاني ضربني على رأسي.. لكنني بخير.. الحمد لله، بسيطة.
- والمكان الذي حدث فيه هذا هل هو شارع جانبي خال وأنت سقطت جوار سلم معدني وصناديق خشبية؟

يهتف متعجبا:

- نعم؟! كيف عرفت؟
- سمعتك تحكي للشرطي.
- لم أخبره بتفاصيل السلم والصناديق.

أزفر وأقول أخيرا:

- لن تصدقني... رأيت ما حدث لك بالتفصيل في عقلي، قبل أن أعرف عنه شيئًا.. ثم رأيت تفاصيل أخرى في طريقي إلى المستشفى.. بنفس الطريقة.

يعتدل في جلسته فيعقد حاجباه ألما وهو يسألني:

- كيف هذا؟ أريد أن أفهم.. حلمت بما حدث؟
- ليس حلقا.. خطر المشهد على عقلي مرتين، كأنني أراه بعيني، أو... كأنني أتذكر أمرًا حدث من قبل.. هل تفهمني؟

ضيق عينيه وتابع استجوابي

- وهل حدث هذا من قبل؟
- لست متأكدة .. لكن على الأرجح لم يحدث.





أغمض عينيه وأراح ظهره إلى الوسادة خلفه.. يبدو أنه لا تفسير لديه لما حدث وليس لدي أنا أيضًا أي تفسير، لكنني شاكرة على المصادفة الغريبة التي اضطرته للاتصال بي بالذات.

يقول لي في ود حقيقي

- أتعبتك معي، لكني لم أرغب في إزعاج السيد (فادي)، هو دائما مشغول.

أضحك وأقول:

- فطلبت منهم الاتصال بي مضطرًا! لم يكن أمامك سواي.

يحدق إلى حذائي طويل الرقبة ويغمغم

- إلى حد ما هذا ما حدث.

مكثت في المستشفى حتى جاء الطبيب، وأخبرنا أن في وسعه المغادرة الآن على أن يعود صباحًا للاطمئنان على الإصابات.

أنزل معه كي أعيده إلى الفندق، أحاول أن أحمل عنه حقيبته الصغيرة، لكنه يرفض. لماذا لم يسرقها من ضربوه؟ إذن ماذا كانوا يريدون منه ؟!

لم نركب السيارة المستأجرة بالطبع؛ كي لا يعرف شكلها، وكي لا يسأل نفسه عن السبب الذي أحتاج من أجله سيارة مستأجرة. نصل إلى الفندق.. هذه فرصة سعيدة كي أعرف رقم حجرته،

وعرفت أنها في نفس الطابق الذي أنزل فيه. بعد ساعة أنزل لأستعيد سيارتي.. أفكر طيلة الطريق فيما حدث اليوم.. (يحيى) غريب الأطوار ولا أستطيع الإمساك بسبب لهذا، لكن كل شيء حوله مريب.

أعود إلى حجرتي وأفترش الأرض، أرسم مخططا للطابق الذي نقطنه من الفندق.. الحجرات في صفين على جانبي ممر على شكل منحني في الطابق الأرضي حمام سباحة تطل عليه غرف الصف الخارجي، أما حجرات الصف الداخلي فتطل على حديقة خلفية.

أخرج إلى شرفة حجرتي وأحدد شرفة حجرة (يحيى).. بعيدة هي، لكنني أستطيع رؤية ضوء مصابيحها من خلف الستار.. يبدو أنه لم ينم بعد.

أجلس على مقعد في الشرفة وأطفئ الأنوار...

وأفكر...

لماذا يتعمد (يحيى) الابتعاد عن الناس؟

ما سر شروده المتزايد مؤخرًا، خاصة في الرحلة الأخيرة؟

ما علاقته بجريمة قتل الولد لأبيه ؟

لماذا يشك أنه مُراقب؟ ما الذي يفعله ويدفع آخرين إلى مراقبته؟

ماذا كان يفعل في ذاك المكان المشبوه الذي هوجم فيه؟

لماذا لم يسرق مهاجموه منه شيئا؟



كيف رأيت ما حدث له ؟

أنظـر إلـى الأشـياء علـى فخـذي وأبتسـم. حقيبـة (يحيـى) ظلـت معـه طيلـة الطريـق مـن المستشـفى إلـى الفنـدق، لكنـه كـان متعبـا أخيـرًا، لـم يشـعر وأنـا آخـذ مـن الحقيبـة جهـاز الكينـدل وعلبـة المسـكن، وأتركهـا مفتوحـة لـيظن أنهمـا سـقطا منـه فـي المستشـفى أو فـي التاكسـي أفـتح الجهـاز.. قائمـة الكتـب أطـول ممـا توقعـت، وأغلبهـا مواضـيع عـن التنـويم المغناطيسـي والتنـويم بالإيحـاء والإسـقاط النجمـي مـا الإسـقاط النجمـي ؟ ومـا التنويم بالإيحاء هذا؟ شيء مما نراه في الأفلام؟

نقلـت أسـماء هـذه الكتـب واشـتريت منهـا نسـخا إلكترونيـة عبـر أمـازون لسـت لصـة، وسـوف أعيـد الجهـاز لــ (يحيـى)، لكنـي أحتـاج إلـى إلقـاء نظـرة إلـى مـا يحويـه ظـلام شخصـيته المغلقـة.. مجرد فضول بريء، لا مثل ذلك الذي يقتل القطط.

التساؤلات العاشرة

يحيى

يُدَق الباب.. لا أستطيع الحركة من الألم، ومن صدمة ما حدث أمس.. نور الصباح يحاول اقتحام ظلام الحجرة المريح ويفشل.

أفتح الباب وأنا أرتكن إلى الحائط، لأرى (مريم) تمسك جهاز القارئ الإلكتروني الخاص بي وعلبة المسكن.

- صباح الخير يا كابتن... لا أريد أن أزعجك، لكن المستشفى اتصلوا بي أمس، وأخبروني أنهم وجدوا الكيندل وعلبة الأقراص في الحجرة على الأرض.. عدت إليهم وأخذتهما، ولم أشأ إيقاظك في وقت متأخر.

ثم تمد يدها بالجهاز والعلبة، فأخذهما شاكرًا.

- شكرًا. أتعبتك معي كثيرًا أمس.
- لا تقلق. هل تحب أن أوصلك للمستشفى في ميعاد الكشف ؟
- أنا أفضل اليوم.. سأذهب بنفسي.

تقول وهي تبتعد بالفعل

- لو احتجت أي مساعدة اتصل بي.

ترحل دون إزعاج أو إلحاح أو أسئلة غريبة أما زالت غاضبة مني؟ ألا تريد الحديث عما رأته أمس ؟!



كيف سقط مني الجهاز وأنا لم أستخدمه في المستشفى؟

أفتحه فأجد شاشته سليمة سقط ولم تتضرر شاشته الهشة؟

أفحص حقيبتي فأجدها مفتوحة، ولا ينقصها شيء آخر سوى هذين.. أحمد الله على أنني لم أفقد شيئا أهم.

ما حدث أمس كان غريبا بما يكفي.. منذ رأيت (أوليفيه) يراقبني من خارج الفندق قررت أن أخرج لأعرف إن كان سيتبعني، ففعل عبرت الطريق إليه مباشرة، فتجمد في مكانه حرجًا، لكنه لم يفر وتحدث معي.

قلت له برفق

- أنا رأيتك في المطعم البارحة كيف عرفت مكان إقامتي؟

أجاب وهو يحك عنقه:

- آسف أنا بالفعل لم أكن أراقبك.. لم أكن أقصدك مسيو أنت. أنا.. كنت فقط.. الأمر معقد.
- احك لي هل تود أن نجلس في مكان ونشرب شيئا؟
- لن أستطيع التأخر عن العمل أكثر من هذا. لكن.. أنت لا تعرف حقا ما يحدث في المطعم ؟!
- وكيف لي أن أعرف؟
- أعني.. لقد رأيتك في حلم منذ أيام.. أنا متأكد أنني رأيتك.. لون بشرتك الداكن، شعرك الأجعد، ابتسامتك الواسعة ناصعة الأسنان.. عندما لمحتك في المطعم ميزتك على الفور. تبدو أجنبيا مغربي أم تونسي ؟



- مصري. . احك لي الحلم بالضبط... بالتفصيل.
- رأيتك تجلس جوار فراشي وتهمس لي أنني سأموت بشطيرة محشوة بالأمواس، وأن هناك من سيصورونني وأنا أموت، ولن يتحرك أي منهم لنجدتي.

أساله في اهتمام

- متى رأيت هذا الحلم؟!
- رأيتك منذ ثلاثة أو أربعة أيام. أنت أخبرتني أن هذا سيحدث خلال أيام أو أسابيع. لم أهتم للحلم ونسيته حتى وبدأت تفاصيل ما يحدث في المطعم تتضح أمام عيني.

كنت أراقب مسيو (شارل) صاحب المطعم اليوم.. أرغب في معرفة أي معلومات عنه.. تبعته حتى وصل إلى هذا الفندق، وتحدث مع شخص آخر، ثم أخذ منه حقيبة صغيرة ورحل.

المصادفة الغريبة أنك كنت في الكافتيريا جوار النافذة أقسم أن هذا ما حدث.

يبدو أن الشاب قد اعتاد تكذيب الناس له، فزاغت عيناه وهو يحاول إقناعي بصدق ما يقول، وكاد يفقد الوعي.

- أصدقك.. أصدقك.. هل يمكن أن نجلس في مكان ونتحدث أكثر؟
- ليس الآن.. لا بد أن أعود إلى المطعم. إن استطعت، قابلني عند باب المطعم الخلفي بعد الساعة التاسعة.. سأجلس معك ونتحدث كما تشاء.



تركته والدنيا تدور من حولي.. لقد حلم بي وحذرته (ماركو) حلم بي وهو يُحتضر ترى ما الذي سيحدث مع (أوليفيه)؟ من سيقتله بهذه البشاعة؟ أم أنه ارتكب ما يستحق انتقاما كهذا؟ من هؤلاء في المطعم ؟ ولماذا انصب اهتمامهم على تصويره : كأنه يؤدي عرضًا مسليا؟

كنت أحتاج إلى أن أنفرد بنفسي، وسئمت الاختباء في الفندق، ففكرت في دخول السينما .. مكان مظلم مريح وشاشة عملاقة تبتلع كل ما أفكر فيه.

دخلت فيلمًا ذا إيقاع هادئ، لم أفهم أغلب حواره الفرنسي وعلى خلفية الأحداث المملة استرجع مخي ما مر بي .

الأشهر الماضية، ورحلتي مع التنويم المغناطيسي الذاتي نمت علاقة لطيفة بيني وبين (كيفين)؛ المنوم المغناطيسي الذي تعرفت إليه في لاس فيجاس... نصحني ألا أجرب التنويم الذاتي دون رفقة أحد الدارسين لهذا العلم.

كنا وقتها في مقهى مزدحم صاخب، نجلس في أبعد نقطة عن المشرب والكحوليات بناء على رغبتي، ونشرب القهوة الأمريكية في كوبين ضخمين.

- أتعرف يا كابتن التنويم المغناطيسي الذاتي لن يسمح لك فقط بالتحكم في ذكرياتك بل قد يخرجها كلها إلى خارج أسوار عقلك الآمنة، أو يحبسك شخصيا فيها.

عقدت حاجبي وسألته:

- ماذا يعني هذا؟ أليس الأمر مقصورًا على استرجاع ذكرياتي التي يحجبها عني عقلي الباطن ؟



-

- هذ صحيح، لكن عندما يكون هذا إجراء تحت إشراف مختص مُعتمد يرشدك في رحلتك وحدك، قد تضل طريقك يا كابتن

أقلقني ما قال لكني بالفعل عاجز عن العيش وذنب صاحبي (كريم) في عنقي.. بل ذنب كل من استغاث بي ولم أساعده أريد أن أعرف معنى أول جريمة رأيتها في أحلامي وسر هذه المرأة التي نظرت لي. لم أكن أعرف وقتها أنها (مريم).

لست شخصًا خالي البال أو أعاني فراغا، بل لدي عائلة وعمل وحياة، لكن ما حدث مع أول وآخر صديق في حياتي يكبلني وأعجز عن تجاوزه، خاصة أن كل الأطباء النفسيين الذين طلبت مساعدتهم لم يصدقوا أمر الرؤى التي تطاردني.

أنا متأكد أن الأمرين متصلان ببعضهما، لكني عاجز عن تفسير هذا الارتباط.

سألته:

- ما أخطر ما يمكن أن يحدث لي؟
- غيبوبة.. غيبوبة لا يضمن أحد أن تستفيق منها. قد تحبس داخل أحلامك وذكرياتك وعقلك الباطن للأبد.

ضحكت وقلبي يرتجف – وأنا أقول:

- ليس إلى هذا الحد.. ما تقول لا يحدث سوى في الأفلام.

كأنني كنت أحاول إقناع نفسي لا إقناعه. قال لي بجدية



- وأنا أحدثك صدقا أنت طيار، وتعرض على كشف طبي وتقييم نفسي دوريًا.. لو اختل توازن عقلك ستفقد عملك.

أعتقد أن هذه عاقبة واقعية كافية صمت، فأردف:

- رأيي لو أن هناك مشكلة في ماضيك قد يحلها التنويم المغناطيسي، فالجأ إلى مختص أو معالج نفسي. التنويم بالإيحاء رائج ومعترف به في العلاج النفسي، وليس كلام أفلام كما يُشاع عنه.

كنت أعرف أنني اكتفيت من المختصين، فقررت قراءة كل ما تقع عيناي عليه من كتب عن الموضوع، وسرعان ما أدركت أن الأمر متشعب ومعقد.

لكن ساقتني قراءاتي إلى موضوع آخر، أكثر إرعابا؛ الإسقاط النجمي، وتجارب الخروج من الجسد.

بعدما انتهى الفيلم تجولت قليلا في الشوارع التجارية المحيطة حتى حل موعدي مع (أوليفيه).

الشارع الخلفي هادئ ...كالعادة طرقت على الباب الخلفي ففتح لي (أوليفيه) على الفور، ثم سحبني إلى حجرة جانبية مظلمة وهو يهمس:

- آسف، لن أستطيع تشغيل المصباح.. الكاميرات هنا في كل مكان.. كاميرات مخفاة لا أعرف مكانها بالضبط، لكن كل شيء يدور هنا يُسجل

أسأله همسا بدوري



- لماذا كل هذه الإجراءات صاحب المطعم لا يثق بكم إلى هذا الحد؟!

رأيت حدود كتفيه في الظلام تتهدل وهو يقول:

- ليت الأمر كان كذلك.. هناك سبب آخر لهذه الكاميرات... نحن جميعًا في خطر، حتى أنت
- لا أفهم ماذا يحدث؟ هل الأفضل إبلاغ الشرطة؟
- الأمر أكبر منا ومتورط فيه العديد من الأطراف ذوي الشأن أنت تعرف أننا جميعًا من أهل الشوارع.. منا من له سوابق، أو كان مدمنا، وليس لنا أهل يسألون عنا لو اختفينا!

هتفت رغمًا عني:

- لا تقل إنه يتاجر في أعضائكم!
- الموت السريع أهون مما يحدث لنا هنا.. هل تتذكر زميلي الذي فتح لك الباب المرة السابقة؟
- بالطبع.. جابريل.

- اختفى أمس! قُتِل!

- من قتله ؟!

- مسيو (شارل).. وقتله بطريقة بشعة،

- لماذا؟ وكيف عرفت؟



اقتـــرب منـــي أكثـــر حتـــى شـــممت رائحـــة وجبتـــه الســـابقة فـــي أنفاسه:

- هل تسمع عن الـ ديب ويب»؟ الإنترنت العميق.
- أعرفه. هل أنت متأكد مما تقول؟
- انتظر.. سأجلب لك دليلًا.

سـمعت خطواتـه تبتعـد، ثـم صـوت بـاب يفـتح بعنـف، وشـعرت بمن يجرني جرا إلى الخارج. أصرخ

- ماذا يحدث ؟! ابعد يدك!

ورأيـــت علـــى الضـــوء المتســـلل بالتـــدريج مـــن بـــاب المطعـــم المفتـــوح رجلـــين ملثمـــين يســـحبانني ثـــم شـــعرت بضـــربة علـــى مؤخرة عنقي، ثم طعنة ...

هويت أرضا وأنا أتألم. قال لي أحدهما:

- لا تتـدخل فـي عمـل غيـرك يـا كـابتن (يحيـى).. لا نريـد أن نؤذيك.

دخـلا إلـى المطعـم بعـد ذلـك، وسـمعت صـوت صـراخ وأثـاث يُجر وينكسر وعيي يتسرب مني أقاوم.

خرجـا وحـدهما ورحـلا جـررت نفسـي إلـى مـا خلـف صـناديق خشـبية هنـاك، ثـم اتصـلت بالنجـدة لكنـي مـا زلـت متعبًـا ممـا حـدث، لكـن عقلـي يعمـل بـلا توقـف. تـرى أيـن (أوليفيـه) الآن؟ هرب؟



الحقيقة أنني خشيت إبلاغ الشرطة بتفاصيل ما حدث؛ كي لا أوذي الشباب بالداخل .. أم أنني مخطئ وآذيتهم أكثر بالفعل ؟ لو أن إبلاغ الشرطة هو الحل، لماذا لم يفعلوا؟!

ربي.. هل فعلت فيهم كما فعلت في (ماركو)؟! لكن في أي مجرور تورط (شارل) وورطهم معه ؟

الإنترنت العميق.. عالم مرعب أدغال الإنترنت السرية.. فيديوهات غريبة ومرعبة، وكلها حقيقية.. تعذيب اغتصاب قتل، سادية .. كل هذا يقام عليه مزادات على الهواء من أثرياء مختلين.. من يدفع أكثر ينفذوا طلبه في الضحية. لطالما كنت أعتقد أن هذه الأمور خيال لا يصدق، وحكايات يخيفون بها الصغار هل ما رأيته في رؤيا المطعم وصوره رواده الأثرياء من ضمن هذه الأفلام الخبيثة ؟!

ماذا أفعل؟ وما علاقة السيد (فادي) بـ (شارل)؟

ثم أجده يتصل بي.



التساؤلات الحادية عشرة

مريم

ما عرفته عن التنويم المغناطيسي والإسقاط النجم أذهلني.. أيعقل أن يكون في العالم شيء كهذا؟ لو أن أحدًا برع في التنويم بالإيحاء ووجد من لديه ميول للقتل، هل يمكن أن يجبره على ذلك؟ هل نحن أحرار كما نتصور، أم أن

بداخل كل منا شخصين لا يعرفان شيئًا عن بعضهما البعض، وينتصر من هو أقوى؟

الكتب تقول إن التنويم بالإيحاء لا يستطيع إجبار أحد على فعل شيء لن يقبل بفعله في الوعي، لكن ليس كل ما يُذكر في الكتب صحيح، خاصة لو أن مؤلفيها يخشون التجربة.

ما الذي يجعل (يحيى) يقرأ في هذه الموضوعات بهذا الشغف ؟ هل لديه ذكريات مؤلمة يحاول التخلص منها عن طريق التنويم المغناطيسي ؟ لا مشكلة، لكن ما دخل الإسقاط النجمي في الأمر؟ كيف يمكن البشري أن يتحرر من جسده المادي، وينتقل إلى مكان آخر، دون أن يراه أحد؟ يمكن أن يصل الأمر إلى الحركة عبر الزمن، فينتقل إلى الماضي أو المستقبل !!

هل يستطيع (يحيى) فعل ذلك؟ أعود للتساؤل الأهم، مازعلاقة (يحيى) بهذه الجرائم الغريبة؟ ترى... لا.. لا.. لا يُعقل أن يكون هو القاتل أو .. المحرّض على... المحرض على القتل!



(يحيى) ينوم الناس ويحرضهم على الجرائم ومن هاجموه هم أشخاص أوذوا منه من قبل، أو شركاء نشب بينهم نزاع. رائع حقا رائع يبدو أنني وجدت المثالية الكاملة أخيرا، والتي لا يستطيع فيها أحد إثبات شيء على الجاني أو حتى كشفه. لا بد أن أعرف ما هي الجرائم المرتبطة بـ (يحيى) كيف أفهم من يستهدف ولأي سبب.. بعدها نتحدث.

يخطر لي أن أجرب...

لا، لا أقصد التنويم المغناطيسي، بل الإسقاط النجمي أحاول كثيرا، لكن ثمة شيئا خاطئا...

لا نتيجة أنا عاجزة تمامًا عن الاسترخاء، وعقلي يأبى الابتعاد عن جسدي.

أرسل لـ (يحيى) على واتساب أحاول أن أبين له أنني لا أقتحم حياته، بل أطمئن عليه لا أكثر أكتب له بالإنجليزية كما اعتدت

(مساء الخير أتمنى أن تكون في حال أفضل هل تود أن أساعدك في أي شيء ؟ لم أخطط ليومي بعد، ففكرت أن أسألك أولا).

تصل الرسالة. أنتظر دقيقة بعدها حتى يأتيني الرد في صورة رسالة صوتية بالعربية

- مساء الخير أنا بخير حمدا لله لو أن لديك نصف ساعة يمكن أن نتقابل في...

ثم يصمت هنيهة قبل أن يُكمل في عسر:



- في أي مكان خارج الفندق.

ما هذا التطور الهائل نتقابل وخارج الفندق؟ ما الذي استجد ؟!

أرد عليه بعد دقائق كأنني لست متفرغة أو متلهفة للرد، وأخبره أني موافقة يرسل لي عنوان مكان قريب. أتعمد أن أصل في موعدي بالضبط، لا قبله.. هذه الانطباعات مهمة، وهي فرصة لأرسم أمامه صورة لي يثق بها؛ حتى لا يقلق من أن أتعدى حدود مملكته بفضولي ولهفتي للمعرفة.

أراه شاردا، يجلس على منضدة خارجية على الرصيف ينظر لكوب شاي كأنه ينظر خلاله لا إليه. يرتدي سترة جلدية ويرفع ياقتها فيخفي نصف وجهه الأسفل، ويغطي عينيه بالنظارة الداكنة الكريهة.

قبل أن أجلس أمامه أقول في تحفظ:

- كابتن.. مساء الخير.

ينظر إلى ساعته، يرفع رأسه بالكاد نحوي، ويقول بصوت مهموم

- مساء الخير.. وصلت في موعدك بالضبط.
- تعودت على هذا.

أجلس وأخلع نظارتي العاكسة وأنا أضيف:

- ماذا حدث؟ أقلقني صوتك.



يسألني عما أود أن أشرب، فألح عليه في اهتمام رافعة حاجبي تأكيدًا على اهتمامي بسلامته. يزفر أخيرًا ويسألني:

- (مريم) .. هل حلمت بشيء من قبل وتحقق؟

أجيب في جدية

- بالطبع .. كنت أحلم أن أعمل طيارًا، وهأنا أقترب من حلمي

يقاطعني بضحكة خفيفة وهو ينظر إلى أظفاره:

- لا لا .. لا أقصد الأهداف، بل الأحلام التي نراها في نومنا وتتحقق، أو.. أو أن تشاهدي حدثا وتعرفي أنه وقع بالفعل كما رأيته.. اعذريني كلامي مختلط.

أقول وأنا أرجع شعري المموج إلى ما وراء أذني ليرى وجهي بوضوح

- أفهمك .. لم يحدث لي هذا سوى مرة واحدة، تلك التي رأيتك فيها مصابًا في الشارع قبل أن تتصل هذا أغرب شيء حدث في حياتي كلها.

يرشف من الكوب الذي برد فيه الشاي ويقول:

- أنا فقط أسأل لأجل ما تتحدثين عنه هذا.. أمر غريب حقا... أسمع أن هناك من تتحقق أحلامهم، فقلت ربما أنتِ منهم.



يضحك تلك الضحكة التي تواري خلفها الكثير، فأضحك بدوري وأهتف:

- ليت هذا حقيقيا ليتني أعرف المستقبل.. هذا أكثر ما يقلقني.
- لا أعتقد أن من يرى المستقبل قد يرتاح من القلق. هل تؤمنين بقدرة الإنسان على تغيير المستقبل لو عرف ما فيه؟
- لا أومن بذلك.. سيدور حول نفسه مرارا، ثم يجد نفسه مضطرًا لفعل ما يحاول الهرب منه. لكن، هل من لديهم القدرة على رؤية المستقبل، يستطيعون رؤية ما يريدون منه؟ مثل العرافين مثلا.
- أعتقد أن الرؤية عشوائية، يرون خلالها أحداثا متفرقة.

لكن سؤالك مهم هل هناك تمارين تقلل هذه العشوائية مثلا؟

أسند ظهري إلى المقعد وأنا أشير إلى النادل وأجيب:

- بصراحة؟ أرى كل هذا تخاريف ومصادفات.. لا يعرف أحد المستقبل حقا.. هو وهم كأن الناس في حاجة دائمة لمطاردة فيل مُجنّح لا وجود له.. شيء يطمئنهم أن الخيال ربما يصير ،واقعا، ويستطيعون به التحكم في مصائرهم.

يأتي النادل فأطلب دابل إسبريسو يسألني (يحيى) محاولا جذب انتباهي:



- فيل مُجنّح ؟ حتى بعد ما حدث معك؟
- أنا لم أر المستقبل، فقط رأيت شيئا حدث في مكان آخر بعيدا عني.

يضحك مرة أخرى ويهتف:

- وهل هذا طبيعي ؟!
- لا .. لكن لا بد من تفسير عقلاني. لماذا طلبت مني نتقابل خارج الفندق ؟

ينظر (يحيى) حوله بحركة خفيفة ثم يسألني:

- لا أعرف سببًا بالضبط .. ما رأيك في السيد (فادي)؟
- ماذا به؟ ليس لي رأي معين؛ لا أعرفه جيدا. المفترض أنك أنت من تعرفه؛ فقد عملت معه من قبل.
- أنا لم أعمل م معه إلا في رحلة روما.. أنت كنت معنا. لكنه عميل قديم لدى شركة الطيران.

أساله أنا:

- وما رأيك أنت فيه ؟

يزفر ويبعد مرفقيه عن المنضدة، ثم يقول لي وهو ينظر تجاه مدخل المقهى:

- أنا عاجز عن تكوين رأي معين. هل تحبين مشاهدة الأفلام؟ بحثت عن الأفلام التي أنتجها من قبل.. يقولون إنه منتج وأنا حضرت معه التصوير مرة.. الغريبة أنني لم أجد عملا معروفًا أنتجه أعني هو منتج ولديه شركة إنتاج، لكن أعماله السابقة غير مذكورة ، إلا من فيلمين تجريبيين أخرقين لم أفهم منهما شيئا.



- ولماذا يقلقك هذا؟ هو شيء غريب طبعًا، لكنه حر. ربما هو منتج فاشل. فيم ترتاب؟

يستند مرة أخرى بمرفقيه على المنضدة، وينظر تجاهي وهو يقول في يأس

- لست مرتاحًا.. أو ربما اعتدت أن تكون الأمور واضحة بالنسبة لي كوضوح مؤشرات وعدادات الطائرة.. لا أحب الغموض.

أقول ضاغطة على كلماتي:

- كل يحمي خصوصياته حتى وإن ظهر مريبا في أعين الناس.

يرن جرس موبايل (يحيى) فيستأذنني ويقوم مبتعدا أشرب قهوتي مستمتعة بدفعة الكافيين التي تضخ في عروقي. أتمنى أن يظل الحديث بيننا وديا، وأستطيع استدراجه للحديث أكثر مع الحفاظ على مظهري الحيادي هذا الحياد سيدفعه لمحاولة إقناعي بوجهة نظره، ويكشف دون أن يقصد عن التفاصيل. أنا ملجؤه الأخير، ولا بد أن أقتنص هذه الفرصة؛ فرصة صيد الفيل المُجنّح شخصيا؛ حلمي بالجريمة الكاملة.

يعود (يحيى) إلى المنضدة بوجه متعكر، فيدس موبايله في جيبه ويحك جبينه...

- هل أنت بخير؟
- لا بد أن أرحل الآن. نتحدث لاحقا.



ثم يسرع مبتعدا ترى ماذا استجد ؟ كل شيء سيظهر عاجلا أو آجلا أطلب قهوة أخرى وأنا أقرأ آخر أخبار الجريمة في فرنسا، لكني !

لا أجد ما أبحث عنه.. ضايقني هذا للغاية.. الأمر أشبه بأن تقيم معرض لوحات لا يزوره أحد .. كل هذا الفن ذهب هباء.

لا بأس.. كل شيء بأوان.

لكن هناك خبرًا آخر يحتل مساحة كبيرة من الجريدة؛ عامل في مطعم يقتل مالكه وزبائنه، ويعرض الجريمة مصورة على وسائل التواصل الاجتماعي تحمست لهذه الجرأة غير المسبوقة ترى ما دافع العامل لهذا؟

أكمل القراءة، وأعرف أن الشاب سلّم نفسه للشرطة فجرًا، بعدما أذاع جريمته من حسابي صاحب المطعم على فيسبوك وتيكتوك. لا بد أنه سرق موبايل الرجل.

قبل أن أكمل قراءة باقي الخبر، أبحث عن الفيديو على الإنترنت، فأجده قد حجب عمومًا لا شيء يُحجب عن الإنترنت بالكامل.. ثمة نسخ عن كل شيء يتداولها الناس سرا، وأنا أعرف أين أحصل على هذه النسخ مهما كانت مخفاة. ما يتعامل معه الناس من الإنترنت مجرد قمة جبل جليدي أغلبه تحت الماء...

في الظلام الدامس.

التساؤلات الثانية عشرة

يحيى

طلب السيد (فادي) مقابلتي.. كان يريد الاطمئنان علي حتى يقرر إن كان سيحتاج طيارًا غيري في رحلة العودة.

بعدها جلسنا نتحدث قليلا عن السينما، ثم اتخذ الحديث منحى مختلفا

- لا توجد أفلام أكثر مشاهدة من أفلام الرعب.. جمهور مضمون يلهث وراء الأدرينالين مهما كانت تلك الأفلام رديئة منخفضة الإنتاج، فسوف تجد دائما من لا يهمه سوى سماع الصرخات، ورؤية الأشلاء الممزقة. فهمت ؟ هذا مكسب مضمون دائما.

أضحك وأنا أقول:

- لا بد من فتيات جميلات كذلك.. هذا مكون مهم من مكونات الخلطة السحرية

فيضحك بدوره وهو يطفئ سيجارته البنية ويقول:

- لديك حق. لكن الجمهور الآن أصبح انتقائيا بعض الشيء... لم يعد يروقه ما كان يروق للجمهور في الماضي.. أصبح كالمدمن يحتاج إلى زيادة جرعة المخدر دائما كي يؤثر فيه.

أخبره أنني أحب أفلام الرعب، لكن هناك حد فاصل بين الرعب والمرض النفسي والجنون... هناك أفلام ترهقني نفسيا،



تلك التي تتلخص في صراخ وقتل وتعذيب.. أفلام مقززة حقا.

- هذه الأفلام يا كابتن لها جمهور يكبر يوما بعد يوم.. لكن أين تجد الكتاب الذين يكتبون سيناريو لمثل هذه الأفلام؟ وأين الممثل الذي يقنع الجمهور أن ما يحدث له حقيقي؟ الصرخات السينمائية صارت معتادة لا تثير أي شيء في نفس المتفرج.. شكل الدماء والأشلاء متكرر.. ردود الأفعال محفوظة ومكررة.. الكل ينقل من بعضه لا من الواقع.

أقول في ضيق:

- رداءة الكتابة والتمثيل وضعف الإنتاج تمنع المُشاهد من الإصابة بالجنون وهو يشاهد الفيلم لا بد أن يظل المتفرج مؤمنا أن ما يراه غير حقيقي

كنت أتكلم باسما، لكنه قال في جدية

- ولو أخبرتك أن هناك الكثير ممن يحبون أن يقتنعوا تماما أن ما يشاهدونه حقيقي؟
- إذن هم مرضى.. مختلون

يضحك فجأة ويقول:

- ليسوا مرضى ولا أي شيء... للناس فيما يعشقون مذاهب... قرأت أن أفلام الرعب تطهر النفس من المخاوف، وتخرج الرغبات المكبوتة.. ألا يمكن أن



نقرأ يوما أن مشاهدة أفلام الرعب تقلل معدلات الجريمة؟

- أرى أن العنف لا يولد سوى العنف.. هذا بخصوص النوعية التي تقصدها طبعًا، أما أفلام الرعب الجيدة فمثلها كمثل أي فن آخر، ربما تصلح أو تساعد.
- التجربة خير برهان

أقول مستنكرًا عاقدًا حاجبي

- لا أعتقد أن التجربة في موضوع كهذا أمر أخلاقي
- بالطبع .. لا يوجد ما يسمى بـ «تجارب أخلاقية» أساسا، لكن هناك ضحايا للمعرفة.

أباغته بسؤال مباشر

- هل تنتج أفلام الرعب ؟ لم ألتقط قصة فيلمك في المرة التي حضرت فيها التصوير.
- أنتج جميع أنواع الأفلام، لا أفلام الرعب فقط... وبميزانيات باهظة، ولنا جمهورنا.

يطلب مني أن أحضر التصوير معه مرة أخرى، لكن لم يكن بي طاقة لحضور أي شيء كهذا.. عشرات الأمور تشغل بالي، أهمها تفسير ما يحدث لي وكيف يمتد أثر التنويم المغناطيسي أو الإسقاط النجمي إلى غيري.

أكاد أجن... أحتاج إلى مشاركة أفكاري مع أحد، ولن يفهمني أي شخص بدقة.. حتى استشارة (كيفين) لن تنفعني.. أعرف رأيه فيما يحدث معي، ولن يفعل شيئا سوى تخويفي أجد نفسي أنظر إلى الأرقام في قائمة مكالماتي على هاتفي



المحمول، وأرى رسالة أرسلتها (مريم) للتو تسأل فيها عن صحتي.

لماذا أحتفظ بهذا الحاجز بيننا؟ لأنني رأيتها في رؤيا قديمة لم أصل إلى تفسير لها؟ هل لأنها فضولية؟ أليس من الأفضل أن أكون بالقرب منها سواء ستكون الضحية أم القاتل؟

أرسل ردي، وأجد نفسي أطلب منها لقاء.

وها نحن قد تقابلنا، وللأسف ليس لديها استعداد للإيمان بالغرائب التي تحدث في ..العالم غرائب وراء حدود عقلنا رن هاتفي المحمول برقم أمي أثناء لقائنا، قلقت؛ ليس هذا سلوكاً مألوفًا لديها. استأذنت (مريم) وأجبت الاتصال.

- أمي.. كيف حالك؟

فأجابتني في قلق:

- (يحيى).. أنت بخير؟
- حمدا لله.. ماذا بك؟

صمتت هنيهة، ثم قالت:

- أريد أن أحادِثك في أمر مهم... وسامحني إن أخفيته عليك كل هذا الوقت، لكني لم أشأ أن تصب تركيزك على ما كنت تراه؛ كي لا تتأثر به.
- لا أفهم.
- هل تتذكر.. الحلم الذي رأيته وأنت صغير؟ الرؤيا؟



في قلق أسألها:

- ماذا بشأنها؟
- لم تكن حلمًا عاديا يا (يحيى)، سأوضح لك، لكن أجبني أولا، من هي (مريم)؟

أردد الاسم وراءها كي أحصل على مزيد من الوقت للتفكير، فتكمل أمي:

- (يحيى)، أنا مثلك منذ طفولتي.. أحلم وتتحقق أحلامي. لا.. ليس أحلاما بل شيء مختلف، كأنني.. كأنني أنتقل إلى المستقبل، أسمع وأشم وأرى وأتحرك بإرادتي في ذلك.. الحلم ليس حلما، لا.. أكون مُتَيَقظة وقتها، تماما كما حدث معك وأنت طفل.

صحت بها:

- أمي، ماذا يحدث؟ هل حلمت بشيء؟

حكت لي أمها أنها رأت شابة ذات ملامح شرقية وبنية قوية، تعتمر شعرًا مستعارًا بُنيًا، وتغطي عينيها بنظارة شمس كبيرة.. رأتها في قطار الأنفاق ومعها كاميرا متناهية الصغر، ومحاقن تحقن الناس بما فيها وسط الزحام. كانت تنتقي أصحاب الوزن الزائد.. تمكث بعدها في مكان قريب منهم، وتصور ما يحدث لهم من أثر الحقن، وتراقب الذعر على وجوه من حولهم داخل القطار أخبرتني أمي أن الشابة تلقت اتصالا بعدها، وسمعت من يدعوها باسم (مريم).



- أنت كتبت هذا الاسم في دفترك من قبل وقطعت الصفحة، لكن اسمها كان جليا في الصفحة التالية من (مريم) يا (يحيى)؟

صمت، وسمعت صوت تلاوة القرآن بصوت المنشاوي عبر الهاتف.. هذه خلفية صوت أمي دائما.

- من هي (مريم) يا (يحيى)؟
- لا تقلقي يا أمي، سأتصل بك بعد قليل.. لا تقلقي.

تطلب مني أن أحترس لنفسي وألا أنسى الاتصال بها. أغلق الخط، والأسئلة تتدافع في عقلي كـ.. كتدافع ركاب قطار الأنفاق. لماذا تفعل (مريم) شيئا كهذا؟ إن كان هذا صحيحًا، فكيف خدعت الكشف النفسي الدوري على الطيارين؟!

هل يعقل أن المصادفة فقط أوقعتها في طريقي، أم...؟

لا أستطيع تهدئة جموح الأفكار والمشاعر عدت إلى المقهى واعتذرت لـ (مريم) عن اضطراري للرحيل المفاجئ... لم أرد أن ترى عيني.. كنت متضايقا للغاية من نفسي؛ لأنني أفصحت لها عن شيء من عالمي الخاص الهش...

لولا اتصال والدتي لكنت حكيت لها أكثر.

أسير في الشوارع وتدور المباني من حولي،

كأنني قاعة مرايا في ملاهي .رعب. أنظر إلى انعكاسي في مرآة، فأرى (مريم) تثير الفوضى.. أنظر إلى جهة أخرى، فأرى وجه (فادي) يتحدث عن أفلام ذات أفكار ممرضة..



أنظـر أمـامي إلـى مـرآة فيهـا (أوليفيـه) المـذعور، يـتكلم عـن الإنترنت العميق..

ما علاقة كل هذا بي؟

تتعـب سـاقاي وتطـن أذنـاي لكنـي لا أرغـب فـي العـودة إلـى الفنـدق لا وقـت لأي تصـرف آخـر سـوى محاولـة معرفـة المزيـد ومن ثم الفهم.

أبحـث عـن أقـرب فنـدق، وأحجـز حجـرة أغلـق بابهـا علـى نفسـي وأقـف أمـام المـرآة المتسـخة بالبصـمات، وأنظـر إلـى نفسـي فيها.. البصمات البيضاء الدهنية تحيط وجهي،

هاربـة مـن سـجل إجرامـي، تحـاول تلطيخـي بسـوابقها رائحـة الحجـرة المهملـة تفـوح بـدخان السـجائر والعطـر الـرخيص أجلس على طرف الفراش أمام المرآة، وأغمض عيني...

جسدي خفيف كورقة شجر جافة..

أسترخي..

أطفو..

أرى الحجرة من منظور علوي.

أحـاول تركيـز تفكيـري علـى (أوليفيـه)؛ لأعـرف مـاذا حـدث له، لكني أفشل...

ظلام، رائحة تراب وتحلل عضوي...

أنـا فـي المقـابر رغمًـا عنـي.. جـزء مـن هـذه المقـابر مخصـص لدفن جنود ماتوا في حروب قديمة.



هناك أراه؛ لص المقابر من آخر رؤيا.

اللص يُخرج جثة ويخلع عنها ملابسها جزئيا، وخلفه شخص يصور، وآخر يجلس وعلى فخذيه حاسوب محمول ويقول في حماس وهو ينظر إلى كاميرا جهازه

- المستخدم رقم 667 ، يزايد بخمسة آلاف يورو.. ويطلب فتح البطن ببطء.. صور له صورًا واضحة.

ماذا يحدث؟ ما أراه أمامي ليس له إلا تفسير واحد، خاصة لو ربطته بما قال (أوليفيه).. الإنترنت العميق.

سوق سرية كاملة قائمة على تصوير مشاهد حقيقية لممارسات عنيفة مختلة، ولم أصدق يوما أن الإنترنت العميق حقيقي، وأن هناك بشرًا بهذه السادية إلا الآن.

لكن.. ما الفارق بين ما يفعلون وما يفعله آلاف البشر عندما يشاهدون ضحايا الحروب والمجاعات عبر الإنترنت، بينما يلتهمون المُسلّيات أو يشربون قهوة الصباح؟ ما الفارق بين هؤلاء المختلين وزعماء بلاد العالم الذين ينخرطون في مزادات يومية على دماء وأشلاء الأبرياء، ثم يحضرون صلواتهم وقداساتهم أمام عدسات الكاميرات؟

مايداي.. مايداي.. مايداي.

يخرجني صوت منبهي من الرؤيا، وطبعًا أتوقع أن أجد نفسي في حجرة الفندق الرخيصة، حيث بدأت التنويم المغناطيسي الذاتي، ثم الإسقاط النجمي غير الإرادي الذي يليه، لكني وجدت نفسي في مكان آخر...

أنظر إلى حيث كانت المرأة أمامي، فلا أراها، إنما تلفاز من طراز السبعينيات يعرض رسوما متحركة.. الفيل (دامبو) يطير بأذنيه العملاقتين... الفيل غريب المظهر الذي سخر منه الجميع، وتسبب بالخطأ في ضرر بالغ بسبب أذنيه، فحكم عليه بالعمل في عروض السيرك الخطرة، حتى اكتشف أن أذنيه الضخمتين الغريبتين تسمحان له بالطيران بحرية.

فيل مُجنّح...

هذه رؤيا من الماضي.. كل شيء حولي يشير إلى هذا ثمة فتاة تنظر عبر نافذة إلى غابة قريبة.. بعد لحظات تخرج من المنزل ذي الطابق الواحد وتعتلي دراجة سوداء..

كلما توغلت داخل الغابة أكثر، شعرتُ أنا بألم وخوف شديدين لم أشعر بهما في حياتي.

تعبر من بين الأشجار السامقة ذات الجذوع المكشوفة. لحظة.. أنا رأيت هذا المكان من قبل.. رأيته في رؤيا سابقة فيها كلب وفخ دببة، ورجل يضع الكلب نفسه في جوال وهو يبكي ثم يدفنه... لكني لأول مرة أرى هذه التفاصيل.

تنزل الفتاة عن الدراجة وتسندها إلى شجرة.. صوت أنين الكلب أعلى، وأستطيع أخيرًا أن أراه.

أرعبتني نظرة الفتاة للكلب الذي يعرفها ويستغيث بها في لحظاته الأخيرة.. معجزة أن يظل حيًا مع سوء حالة إصابته...



ربما هي فرصة لاستغاثة أخيرة...

مايداي...

تتسع ابتسامة الفتاة التي لا يزيد عمرها عن اثنتي عشرة سنة، وهي تنظر إلى الجرح الغائر في إعجاب. دون مقدمات ضغطت بوزنها كله على الفخ فانغرست الأسنان المعدنية الصدئة في جسد الكلب الذي أطلق صرخة مدوية، ومات.

ما الفارق بينها وبين من يرمون أطنان القنابل فوق العُزّل؟ قوة غاشمة مقابل ضعف ظاهري يكشف الضعف الحقيقي فيهم.

تقف مكانها فترة تنظر إلى الأشجار و... تحاول أن تبكي. بعدما نزل من عينيها سيل الدموع واحمر أنفها، نظرت إلى مرآة دراجتها نظرة خاطفة، ثم ركبت الدراجة عائدة إلى المنزل بسرعة.

تركت الدراجة تسقط أمام باب المنزل الخلفي ذي الطلاء المقشر بفعل الثلوج والأمطار المتعاقبة، وراحت تنادي على أبيها. خرج الرجل حافيًا ممتقع الوجه.. هو نفس الرجل من رؤياي السابقة.

يهتف بالعربية

- (مريم).. اهدئي.. ما بك؟!

فتجيب (مريم) بالإنجليزية وهي تبكي في هستيريا



- (جيني) يا أبي.. أصابها فخ دبية ... .

يقول الرجل في شك:

- وما الذي أتى بفخ الدببة هنا؟
- لا أعرف لا بد أن تنقذها!

أرى الرجل يقترب من ابنته في خوف كأنه يقترب من نمر، وهو يسأل بصوت بدأ الغضب يتسلل إليه:

- (مريم)).. أنتِ من أخرج الفخ من المخزن، أليس كذلك؟

فتجيب (مريم) في ثقة وقد نسيت لوهلة أنها كانت تتباكى

- لماذا قد أخرجه؟ أنا لا أعرف أنه في المخزن من الأساس.

يركع الرجل أمام ابنته، كفاه ترتجفان...

- (مريم).. (جيني) ماتت؟

تتباكى مُجددا هاتفة:

- لا أعرف لا أعرف

يكاد الرجل ينهار باكيا.. يستند إلى ركبتيه وسط الحشائش المبتلة بالمطر، وينظر إلى ابنته ويقول بصوت متهدج

- مرة أخرى يا (مريم) ؟ فعلتها مرة أخرى؟ هل قصرت في حقك يومًا؟ لماذا تفعلين هذا بي؟ ألم تطلب منك



الطبيبــة ألا تــؤذي الحيوانــات؟ ألــم تطلــب منــك أن تتحــدثي معي كلما راودتك تلك الرغبة؟

ترد (مريم) في برود

- (جيني) غبية يا أبي.. تستحق ما حدث لها.

(مــريم) نفســها التـــي أعرفهــا .. نفــس العينـــين العميقتــين، ولــون البشرة، وتجعيدة الشعر والصوت الشامخ المتحدي.

هي (مريم).

تــدخل البيــت بهــدوء ولا مبــالاة، ويظــل أبوهــا راكعــا تهتــز كتفــاه ببكاء مكتوم.



التساؤلات الثالثة عشرة

مريم

على قدر اتساع العالم، على قدر ضيقه...

يمكن أن تفسر تشابك العلاقات بين البشر بالمصادفات لكني لا أومن بوجود المصادفات أبدا؛ الكتاب الذي يقع بين يديك بالمصادفة قد يغير مسار حياتك بالكامل.

الشخص الذي تقابله مصادفة، يمكن أن يقرر مصيرك، يربطك به للأبد.

حتى السفاحون.. اختيارهم لضحاياهم ليس عشوائيا.. ثمة نسق دائما، قطع بازل تُركّب إلى جوار بعضها البعض؛ لتكون لوحة فنية كاملة لا يراها إلا القاتل لوحة فنية لا بد أن تكتمل مهما تكلف الأمر.

توفي والدي اليوم لماذا اليوم؟ يقول الناس إن عمره قد انتهى أظن أن اختيار اليوم له سبب .

أنزل لأقابل مستر (فادي) لأبلغه بالخبر، بعدما أبلغت شركة الطيران كي يجدوا بديلًا لي. !

لا بد أن أعود إلى الولايات؛ لأن والدي ليس له أقرباء سواي.

يتحاشى (يحيى) الحديث معي ، ولا أعرف ما الذي استجد لقد اختفى بعد لقائنا ولم يتواصل معي ثانية ليس لدي وقت الآن للتفكير فيه وفي مشاكله النفسية.

تبا له.. تبا له ثلاثا!



بعـدما انتهـت مراسـم الجنــازة، أعـود إلـى بيتنــا القـديم فــي وايـومينج.. البيـت الـذي أمضـى فيـه أبـي آخـر أيامـه قبـل وفاتـه في المستشفى العام.

أخرج إلى الحديقـة لـيلا وأنظـر إلـى الـركن الـذي وضـع فيـه أبـي مقعـدًا خشـبيا.. أرض جـرداء لـم يعـد ينمـو فيهـا شـيء، لكنهـا تعد حديقة ولا يمكن أن أطلق عليها مسمى آخر...

على الأقل علنا.

الحديقـة تحولـت مـع الوقـت إلـى مقبـرة حيوانــات كلبتــي مدفونـة هنــا، وإلــى جوارهــا عشــرات الحيوانــات الصــغيرة التــي دفنهــا أبـي وهـو يبكـي.. بـالطبع لـم يكـن يبكـي الحيوانـات قـدر مـا كـان يبكينــي. لقــد حاولــت كثيــرًا إقناعــه أننــي قــادرة علــى حمايــة نفســي، لكنــه صــمم علــى إرســالي إلــى طبيبــة نفســية وعلــى استكمال علاجي حتى الشفاء.

فأكملت.

لكـن هـل يمكـن أن يغيـر العـلاج طبيعتــي؟ كـأن تتوقـع أن ينمـو لـك أذن ثالثــة أو تتحـول إلـى قُنـدس إن واظبـت علــى تعــاطي الفيتامينـات مـثلا هـراء! هـل يمكـن أن تعـالج الأسـد حتـى يصـير قطـا؟ مهمـا روّضـته سيعود إلـى طبيعتـه بمجـرد أن يُفـك الطـوق عـن عنقـه هـذه أنـا، ولـن أسـمح لأحـد أن يغيرنــي ولـن أسـمح لأحد أن يغتصب مني حلم الحرية وأن أكون مثلما أريد.



كل ما فعلت في طفولتي مجرد لعب أطفال، وها هو أبي قد مات مما يعني أنه لم يعد هناك من يعرف (مريم) القديمة أسيرة الأخلاق والأعراف.

لم يتغير شيء في حجرتي القديمة لم يكن فيها منذ البداية سوى فراش ومكتب وخزانة ملابس كلها باللون الأبيض. لم أمل يوما إلى تزيينها بأي شيء، ولا إلى اقتناء ما تحب الفتيات اقتناءه عشت على الأساسيات؛ لأن عالمي كله، بداخلي أنقله حيثما شئت ولا أسمح لأحد برؤية ما فيه.

لكم أشبه (يحيى)!

أفتح حقيبتي وأخرج اللابتوب، فأشغل فيديو الشاب الذي قتل صاحب المطعم ....الزبائن عرفت من الأخبار أنه وضع في طعامهم مادة سامة تستخدم لأغراض زراعية، ويسهل الحصول عليها.. ليس لها طعم مميز لكنها قاتلة لا يُخشى سوى ممن لا يميزهم شيء.. مثلي، ومثل (يحيى).

وجدت الشرطة تسجيلات كاميرات المطعم، ورأت عليها ما حدث، وأكثر صاحب المطعم كان يصور فيها فيديوهات للعرض على الديب ويب والدارك ويب، وبالتحري عرفوا أن هناك تسعة عمال على الأقل اختفوا من عنده في ظروف غامضة، وكلهم من المشردين الذين لن يفتقد أحد وجودهم.

اعترف (أوليفيه) بجريمته، وبأنه عرف حقيقة صاحب المطعم عن طريق موبايل وجده أمام باب المطعم الخلفي بعدما سمع طرقات على الباب ولم يجد أحدًا. لم يكن على



الموبايـل سـوى تسـجيلات لعـروض هـذه الأفـلام علـى الـدارك ويب منها فيلم تعذيب وقتل أحد زملائه.

ذكـر (أوليفيــه) أيضًــا أنـــه رأى قبـل هـذا حلمــا، رأى فيــه مــن ينبهـه بحـدوث كـل هـذا، وحلـم بـه مـرة أخـرى يخطـط لـه كيفيـة قتـل صــاحب المطعـم والزبـائن انتقامـا مـنهم عمـا سـيحدث ومـا قـد حـدث ذكـر لـه الرجـل فـي الحلـم مبيـدًا يُستخدم فـي الزراعـة ليضـعه فـي مشـروباتهم، ولـم يكـن لـدى (أوليفيـه) أي فكـرة عـن هذه المادة من قبل.

إمم.. حلم آخر!!

مــاذا وراءك يــا (يحيــى) ؟ يبــدو أن مصــيرينا مرتبطــان أكثــر من قدرتك على الفرار.

تـــرى مــن أرســل للشـــاب الموبايــل؟ يبـــدو أن مســـيو (شـــارل) صـار عبثـا، وسئم منـه مَن يعمـل لحسـابه، فقـرر أن يضـخ دمـاء جديـدة – حرفيـا – فـي عملـه لـدى (شـارل) كنـز لـم يسـتغله علـى أكمل وجه المُشرّدون.

لكــن مـــاذا لـــو أن مـــن أرســل الموبايــل للعمـــال كـــان يحـــاول إرشـــادهم كـــي يهربــوا، ومــن ثــم يســتغلهم هــو لنفســه، ويُخــرج منهم إبداعات أقوى؟

لطالمـــا روادتنـــي فكــرة خلــط بـــرامج الواقـــع مـــع فيـــديوهات التعـذيب تلـك مــاذا لـو أن الضـحية والمجـرم لا يعرفـان أنهمـا ضـــحية ومجـــرم ولا يشـــعران بـــالمُخطط الخـــارجي الـــذي يتبعونه؟

هل تتخيل إبداع الإنسان، عندما يعرف أنه غير مراقب ؟!



الضغط هو العامل الأخطر في تحويل المسالم إلى مجرم....
لكن (يحيى) تدخل وأفسد كل شيء.

(يحيى) مرة أخرى

أمضيت أيام اجازتي أرفع الفيديوهات التي صورتها في المترو والحمامات العامة والجيم... مواضيعها كلها تدور حول تصوير ملامح الهلع على وجوه الناس وقد ظنوا أنهم يحتضرون لحظات الاستغاثة الأخيرة.

ما يداي

ما يداي

ما يداي

لن ينقذهم أحد ؛ لأن الجميع مشغولون بالنجاة بأنفسهم. جرعات زائدة من الإنسولين تحقن في أجساد أشخاص ذوي وزن زائد؛ هم الأكثر عرضة للتأثر مقارنة بغيرهم.

تخيل حالات الإعياء والإغماء في عربات المترو المغلقة، ولا يعرف أحد لها سببًا، ولا يعرفون حتى إن كان دورهم قادما في الإصابة بهذه الحالة أم لا.

هناك أيضا تجربة غاز الكلور في حمام عمومي مغلق كل هذا استطيع فعله وحدي بالتخطيط والصبر والقراءة.

أعرض نفسي في كل لحظة للخطر، لكني أشعر بفخر شديد عندما أفلت في كل مرة، ولا يتعرف أحد علي أو يجد لي أقرا.

آفة القتلة المتسلسلين الآخرين النسق المتكرر».. هناك من يقتل الشقراوات فيلفت النظر إلى النسق هناك من يختار العجائز أو الأطفال النسق هو من يتيح للشرطة الربط بين الجرائم ومراقبة المستهدفين...

أما أنا، فلا نسق لي ولا سلاح مفضل، ولا مكان محدد، ولا دافع واضح.

أنا من سيخضع العالم لقوة القتل والألم، قوة الغريزة المقدسة المنكرة ...

قوة الجريمة الكاملة.

لكني بعد أحلم بما هو أكثر؛ بالجريمة المثالية!! متى أستطيع تحقيقها دون أن أتدخل أو أخاطر بنفسي؟

(يحيى) معه حل المعضلة وتقاطع حياتينا هو ما دفعني للشك فيه، لكن حتى شكي لا يمكن إثباته.

الجريمة المثالية.. حتى القاتل فيها لن يعرف من الذي حرضه على القتل.



لي سنوات أرفع فيها أعمالي الفنية على موقعي على الدارك ويب. لا أطلب نقودًا، مكافئتي الوحيدة عدد المشاهدات المتزايد لفني، وتعليقات الإعجاب والمطالبة بالمزيد.

أنبهر بقدرة الإنسان على الرفرفة بأجنحة الملائكة علنا، ثم الوخز بقرني الشيطان سرا.

كل هؤلاء أشخاص نتعامل معهم يوميا ولم نرتب فيهم أبدا.. قد يكون منهم قريبك، أو شقيقك، أو زميلك في العمل...

أو حتى الشرطي الذي تلجأ إليه ليحميك، أو الطبيب الذي تأتمنه على روحك..

أو حتى أنت.. لكن لم تواتك بعد الفرصة لتجرب، فتنتشي، فتدمن وتعود إلى طبيعتك المفقودة. في الدارك ويب يمكنك شراء أسلحة، أدوية ممنوعة أو مجرمة، أطفال، أوراق رسمية مزيفة.

يمكنك أن تصير أي شخص وبأي إمكانات، المهم أن تملك المال والذكاء الكافي الذي يحميك من التورط مع أحد هناك وأن تستخدم طرقًا آمنة للدخول إلى الإنترنت، تجعل عملية تعقب ممارستك ومكانك مستحيلة.

الدارك ويب أعمق وأقذر وأكثر الأماكن على الإنترنت إثارة طرق البحث هناك مختلفة قليلا عن الإنترنت العادي؛ لذا لم



يكن صعبًا علي أن أشاهد ما فعل (شارل) هذا بالمُشرّدين الذي كانوا يعملون عنده.

أصوات الصراخ والتعذيب تُصمّ أذني.. وتطربهما.. لكن هذا ليس ذوقي المفضل؛ لقد تغيرت منذ قتلت كلبتي البلهاء، ولم تعد الصرخات تسعدني.

المعاناة الصامتة أفضل بكثير.

لا جديد.. مثل هذه الفيديوهات كمثل الآلاف الأخرى على الدارك ويب..

في نفس موقع من يعرضها أجد تسجيلات لايف، يشارك فيها المشاهدون بالمزايدات المالية لينفذ في الضحايا ما يطلبون و...

لحظة ثمة فيديو لشخص يحبس ثلاثة أطفال في قفص كلاب كبير ويدهن أجسادهم بالطعام ثم يترك الفئران تقرض لحومهم التصوير من كاميرا معلقة في زاوية من زوايا المكان. آخر الفيديو أرى أحد الأطفال يوثق رباط الرجل الذي كان يعذبه، ويأكل منه هو والطفلان الآخران...

الولد يتحدث الإيطالية...

هذه أحداث مألوفة إلى حد مريب.

من يدخل إلى حيز التصوير رجل آخر يمسك كشافا.. يسير الولد نحوه ويقول شيئا لم أفهمه، لكن أثار انتباهي : كلمة

عبارته.. «يَاهيا»؟



أكـرر العبـارة مـرات وأدقـق فــي ظهـر الرجـل الـذي يحدثــه الطفـل.. الطـول المتوسـط الكتفـان العريضـتان، الشـعر الأسـود المجعد، ياقة السترة المرفوعة...

ياهيا.. (يحيى)!

سـجلت الجملــة التــي يقولهــا الطفــل علــى موبــايلي واتصــلت بزميلة دراسـة قديمـة مـن أصـل إيطـالي وطلبـت منهـا ترجمـة مـا يُقــال.. الصــوت لــم يكــن نقيــا فعجــزتُ عــن ترجمتــه علــى الإنترنـت صـوتيا. قالـت لـي (باتريشـا) إن الولـد يقـول إنـه فعـل مثلما طلب منه مَن يُحدثه؛ (يحيى).

كما توقعـت.. هـذه جريمـة إيطاليـا التـي كـان (يحيـى) مهتمًـا بهـا، والتــي اعتــرف فيهــا الجــاني أنــه حلــم بشــخص يحــذره ممــا سيفعله به أبوهم، واستلهم منه طريقة قتله.

(يحيـى) متـورط أيضًـا فـي جريمـة فرنسـا بشـكل مـا.. تـرى هـل هو من أرسـل لــ (أوليفيـه) الموبايـل بمـا فيـه مـن تسـجيلات؟ مـن أين حصل عليها إذن؟

من لديه إمكانات (يحيى) يمكنه فعل أي شيء.

والسؤال هنا هل يعمل (يحيى) مع صاحب الموقع أم ضده؟

لماذا لم يقتل البلطجية (يحيى)، ولماذا لم يسرقوه؟

تحذير فقط ؟



الموضـوع أكبـر ممـا تصـورت آه.. ثمـة سـؤال آخـر؛ هـل سـفر مسـتر (فـادي) إلـى إيطاليـا وفرنسـا بالـذات وفـي هـذا التوقيـت مصادفة ؟

سـؤال أكثـر أهميـة كنـت قد قـدّمت أوراقـي للعمـل فـي أكثـر مـن شـركة طيـران خـاص، وقبلـت فـي الشـركة التـي أعمـل فيهـا الآن، وفـي أخـرى فـي نفـس الوقـت. راتبـي فـي الأخـرى كـان أعلـى فقبلـت، لكـن لسـبب مـا اتصـلت الشـركة التـي أعمـل فيهـا الآن، وعرضـت علـي مبلغـا أكبـر لـو أن هـذا كـان سـبب اعتذاري عن العمل معهم.

ظننـت وقتهـا أن هـذا العـرض بسـبب انبهـارهم بتفـوقي مـثلا، ثمـة صـلة بـين فيـديوهات الـدارك ويـب وبـين الجـرائم ومسـتر (فادي).

هـل تنـتج شـركة (فـادي) هـذه الأفـلام؟ (يحيـى) كـان مرتابًـا فيـه ولم يذكر السـبب تـرى هـل ربـط هـو الآخـر بينـه وبـين الجـرائم؟ كيـف فعلهـا ؟ أم أن (يحيـى) يعمـل مـع (فـادي) ويحـاول اسـتدراجي فـي الحـديث بعـدما عرفـوا بطريقـة مـا بشـأن تسجيلاتي وهوايتي السرية؟

ما علاقة (فادي) بشركة الطيران وبي؟

سأجن!



التساؤلات الرابعة عشرة

يحيى

من رؤيا لآخرى أتنقل، عاجزا عن العودة إلى الواقع. لا أرى سوى جرائم وعذاب وألم.. حروب خيانة، يُتم، قهر، تهجير، اقتلاع من جذور وأصل محارق، مجازر، صمت مهين وتجاهل للاستغاثات التي لا تنقطع.

كل هذا يجعلني أرغب في حرق كل هؤلاء المجرمين...

الموت راحة.. لو أن هناك عذابًا يجعلهم يذوقون من نفس الكأس الذي أجبروا الأبرياء على تجرعه، لعذبتهم به (كريم) صديقي.. أراه كأنني عدت بالزمن أكثر من ثلاثين عاما.. كان مؤدبا هادئا ولم يكن له صديق سواي، ولا لي صديق سواه.

كلانا يشعر بغربة وحنين لبلد لم نحي فيه، كأن طبيعتنا الحارة المتوهجة تتجمد في برودة الأرض الغريبة، فندفئ بعضنا بعضًا.

لم يقتحم أينا حياة الآخر مع صغر عمرينا، نعرف حدود التقارب، ولا نعترف بالاندماج التام.. عندما كنت أراه يبكي في صمت في المدرسة، أجلس جواره وأحكي له أي قصة قرأتها، أو ذكرى حكتها لي أمي عن بحر الإسكندرية ونيل الجنوب.. لساعات طويلة يحمله خيالي وقصصي على جناحي أول طائرة أركبها؛ طائرة عقلي، وينأى به عن كل أسى وكرب.



لم أكن أعرف وقتها من الذي يعذبه بتلك الحروق، ولم أشأ إزعاجه بسؤالي في مرة تغيب عن المدرسة يومين، وفي كل مرة أتصل به يجيبني أبوه:

- لن يعود (كريم) إلى المدرسة ، ولا تتصل به مرة أخرى.
- لكني يا عمي أريد فقط الاطمئنان عليه.
- انسه، ولا تحاول الاقتراب من هذا البيت. أنا أحذرك.

أبوه عربي، لكنه انخرط سريعا في جلسات احتساء البيرة أمام مباريات البيسبول وزيارة الحانات المحلية في العطلات. تأمرك تمامًا حتى ضاع وسط جموع النسخ المتدافعة التي تنتجها الولايات بالدستة.

لكنني ولدت وعشت هنا، ولست خائنا كي أنكر محبتي للأرض والشوارع والناس وكرهي للسياسة والعنف والعنصرية الخطأ خطأ القطيع، لا خطأ من يفتح له الباب تصرف والده أثار ريبة المدرسة فأرسلوا من يتحقق من صدق ادعائه مرض ابنه؛ لأن منع الطفل عن الدراسة جريمة في الولايات لكن (كريم) لم يعد...

قررت التسلل والذهاب إلى منزله ليلا، لكن كيف سأخرج من بيتنا؟ في النهاية لم أجد مفرًا من وضع المشكلة بين يدي أمي.

- حسنا يا حبيبي لا أحد يعرف ظروف الناس، وطالما أرسلت المدرسة من يتحقق من الأمر، فبالتأكيد لم يجدوا شيئا، وإلا انقلبت الدنيا



- لكن هناك من يضرب (كريم) في البيت يا أمي، فكيف يكون بخير وهو حبيس منزله؟!

ضحكت أمي وقالت:

- ومن قال إن هناك من يضربه في البيت؟ ومن قال إنه حبيس ؟
- صدقيني أنا أعرف أن أباه شرير.. أنا متأكد.. ألم أخبرك أنني اتصلت بـ (كريم)، فأجابني أبوه وطلب مني ألا أتصل به مرة أخرى؟ لو نقلوه إلى مدرسة أخرى، كنت سأراه أو كان سيهاتفني!

استشعرت القلق في صوت أمي وهي تغمغم :

- أنت محق.. لدي اقتراح أذهب معك إلى بيت (كريم)، وأحاول التحدث إلى والده أو والدته ما رأيك؟
- لكني أخاف أن يؤذيه أبوه لو ذهبنا. كنت أفكر في أن أذهب وحدي ليلا وأتلصص عبر النوافذ.. ربما أراه أو أستطيع التحدث إليه.

قالت بطريقة قاطعة :

- لا يصح هذا يا (يحيى) . تتجسس على الناس؟ هذا محرم وغير قانوني. إياك أن تفعل ذلك، اتفقنا؟

عشت بعدها يا أمي أتحاشى التجسس أو التدخل فيما ليس لي به شأن لكن ما يحدث خلف الأبواب المغلقة بشع. ليس الجميع قادرين على طلب النجدة، ولا تسمع كل الاذان الاستغاثات.



انصعت إلى أوامر أمي وصعدت إلى حجرتي لأنام فحلمت حلمًا غريبا رأيت فيه نفسي أقف في ركن حجرة (كريم) أنظر إليه وهو نائم مرت ساعات وأنا على هذا الحال، حتى أشرقت الشمس ورأيت أباه يوقظه ويفك قيده الحديدي الذي كان يوثقه به إلى الفراش، ويقول له بصوت رقيق مبحوح

- صباح الخير يا حبيبي هل رأيت كيف أفي بوعدي؟ كل ما طلبته منك أن تقابل الزائرين من المدرسة بابتسامة، وها قد سمعت كلامي لو اتبعت تعليماتي لن أربطك إلى الفراش الليلة أيضًا. كل هذا لأجل مصلحتك ومصلحة أمك، أليس كذلك؟

لم أفهم شيئا من هذا الموقف وتزايد قلقي، لكن عندما استيقظت قلت لنفسي إنني كنت أحلم لم أعرف وقتها أنها رؤيا لا حلم عادي.

ذهبت إلى المدرسة وسألت المختص الاجتماعي عن (كريم)، فأخبرني أنه بخير لكن مريض، وقد قابله بنفسه ووعدهم والده بإرسال تقارير حالته الصحية. قال لي أيضًا إنهم يتابعون حالته، وسوف يعود إلى المدرسة خلال أيام.

حكيت له ما حدث في مكالمتي مع والد (كريم)، فضحك وقال لي إنني ربما أتصل كثيرًا وأزعجهم، ونصحني بالصبر.

لكني كنت قلقًا بالفعل، وظللت شاردًا طيلة اليوم ثم فجأة أثناء الدرس، رأيت (كريم) يبكي في حضن أمه، ويخبرها أنه سيفعل أي شيء يطلبه أبوه؛ كي يكف عن ضربها هي أيضا



كانت مصابة بأكثر من جرح وكدمة في كل موضع إلا وجهها.

قالت له إنها لن تسمح لأبيه أن يؤذيهما مرة أخرى أفقت من شرودي على صوت المعلمة تجذب انتباهي للدرس تعجبت من المشهد وخفت على (كريم).

بعد المدرسة مباشرة اتصلت بوالدتي من هاتف عمومي، وأخبرتها أني سأمر على (كريم) في منزله حاولت إقناعي بالعدول عن الفكرة أو انتظارها لنذهب معا، لكني كنت قد قررت وضعت سماعة الهاتف في مهدها وركبت دراجتي أقطع الشوارع الواسعة المظللة بتشابك الأشجار إلى بيت صديقي.

عندما وصلت أوقفت دراجتي عند الرصيف المقابل، واختبأت خلف شجرة بسرعة عندما رأيت أباه يجهز سيارته ممتاز يبدو أنه سيخرج بعد دقائق أغلق باب المنزل بالمفتاح ورحل تركت الدراجة مكانها وعبرت الطريق، ثم طرقت على الباب مرت لحظات حتى سمعت صوت والدة (كريم) تسأل عن الطارق بالإنجليزية، فهتفت بالعربية:

- أنا (يحيى)! صديق (كريم) في المدرسة

انخفض صوتها وهي تقول راجفة

- (يحيى) .. ارحل الآن يا حبيبي لو سمحت (كريم) بخير، وصدقني ستراه قريبا جدا، لكن أرجوك ارحل.



تراجعت إلى الخلف خطوة فأخرى وأنا أنظر إلى البيت إلى نافذة غرفة (كريم) . رأيته يقف خلف الستار يشير لي. كان يبكي، فمسح وجهه بسرعة وابتسم. ناديته، لكني رأيت أمه تبعده برفق عن النافذة وتغطيها بالستار وقفت مكاني لا أعرف ما عليّ فعله أخيرا قررت العودة إلى بيتي، لكني قابلت سيارة أمي في الطريق. أوقفتها في

منتصف الشارع وترجلت منها وهي : تصيح بي:

- هل هذا ما اتفقنا عليه يا (يحيى)؟! تغلق الخط قبل أن نتفاهم؟ أنت تعرف جيدا أن تصرفك قد يوقعك في مشكلة.

ضيقت عيني وأنا أقول لها:

- أمي، كيف عرفت مكان بيت (كريم)؟

هتفت في ارتباك وهي تتحاشى النظر إلى عيني:

- هات الدراجة واركب.. سنتحدث لاحقا.

حملت الدراجة لأضعها في صندوق السيارة، وقبل أن أغلق بابها سمعت صوت زجاج يتهشم ، وبعد لحظات رأيت (كريم) وأمه يخرجان من نافذة في الطابق الأرضي ومعهما حقيبة وصوت صافرة إنذار يدوي اتجها نحونا سريعا ووالدة (كريم) تسألني في حيرة:

- هل تعرفها؟ أمك؟
- أجل. إلى أين ستذهبان؟

تركت والدة (كريم) سؤالي معلقا، ثم انطلقت نحو أمي وأخبرتها بشيء لم أسمعه، فقالت أمي



- عــــودي إلـــى بيتـــك وأبلغـــي الشـــرطة.. لا تهربـــي؛ سيجدكما...

صدقيني سيجدكما.

- لا أسـتطيع التحمـل أكثـرا أنـت أكثـر شـخص يعـرف مـا نمر بـه.. اللعين يلـوي ذراعـي بــ (كـريم) ، ويلـوي ذراعـه بي! أنا راحلة الآن.
- لا بد أن تصدقيني
- لا بـد أن تسـاعديني أنـت؛ كـي لا يصـل إلـي. هـلا أوصـلتنا إلى أقرب محطة حافلات.

رضــخت والــدتي تحــت الإلحــاح وركبنــا جميعًــا فــي الســيارة جلس (كريم) جواري في المقعد الخلفي وأمسك !

رأيت في عينيـه امتنانـاً عميقًـا لنـا، وكنـت سـعيدا أننـا أخيـرًا لبينـا نداء استغاثته.

لكن سعادتي لم تكتمل...

قبـل أن نصـل إلــى آخـر الطريـق رأيـت سـيارة والـد (كـريم) ورآنــا هــو فقطــع علينــا الطريــق موقفًــا الســيارة بزاويــة أمامنــا ترجـل تاركـا بابـه مفتوحًـا وانـدفع نحونـا، فنزلـت أمـي تحـاول التحدث إليه.

أفلــت (كــريم) يــدي، وعبــر مــن بــين المقعــدين الأمــاميين إلــى حضــن أمــه، فعــاد رضــيعًا يبغــي الاختبــاء فــي صــدرها أســمع صوت أمي تقول:

- لنتحدث.. اسمعني ثم افعل ما تريد.



تجاهلها وراح يضرب باب الراكب بعنف، وهو يهتف في سوقية

- هربت يا شيماء؟! واتتك الجرأة لتفعليها؟ هذا آخر ثقتي بك! ألا تخافين على ابنك ؟ أكيد وجدت رجلا آخر تحتمين به أرأيت أمك يا (كريم)؟ لم تعد تهتم لما يحدث لك بعد الآن! فضلت حبيبها عليك غدا ستجبرك على أن تعمل في خدمته.

يصرخ (كريم) ويخفي وجهه في كتف أمه تهتز السيارة من لكمات الرجل أمي تحاول تهدئته...

أخيرًا جلب من سيارته أداة حديدية وكسر زجاج سيارتنا ثم فتح القفل وجذب زوجته من شعرها إلى البيت أما (كريم) فأمسك ببنطال أبيه يحاول منعه.

تركتني أمي وهرعت إلى أقرب هاتف عمومي وطلبت الشرطة، وأنا متجمد في السيارة...

لماذا يفعل بهما هذا؟ لماذا قد يؤدي أحد زوجته وابنه؟ كنت صغيرًا وقتها والعالم في عيني أبيض أو أسود والمجنون بالنسبة لي هو من يهيم في الشوارع أشعث الشعر أغبر الملابس يخرف باستمرار. لم أكن أعرف وقتها أن المجنون يرتدي البذلات ويسكن القصور، ويحمل السلاح ويتحدث بكلام موزون في مؤتمرات عالمية.

أدخلهما البيت أمامي عادت أمي ودفنت وجهي في صدرها، لكني تملّصت وتعلقت عيناي بباب المنزل المغلق الآن يوجد شهود على أنه كسر سيارتنا، واعتدى على أسرته في الشارع.. لا بد أن تعتقله الشرطة.



دقائق ،مرت، ثم سمعنا صرخة ظلت تتردد في أذني حتى اليوم عدونا نحو المنزل، فوجدنا والدة (كريم) تخرج غارقة في الدماء، وهي تحمل جثة ابنها الدامية

همست في هدوء في أذن (كريم)

- كل شيء انتهى يا حبيبي لن يؤذيك مرة أخرى هيا يا كريم قم.. لقد مات أبوك... قم يا حبيبي.

ثم تهاوت جالسة على الرصيف توقفت السيارات والمارة وتحلّقوا حولنا دخل رجلان إلى المنزل في فضول، ثم خرجا ليعلنا أن الرجل قد قتل بضربة مقلاة من الصلب على مؤخرة رأسه.

جلست جوار الأم وجلست أمي جواري تضمني وتبكي حتى وصلت الشرطة.

لا أتذكر ما حدث في باقي اليوم والأيام التالية؛ كانت هذه هي أول وأكبر صدمات حياتي.

ما دار في عقلي وقتها تساؤلات تجلدني بسياط الإحساس بالذنب والتقصير بلا هوادة هل كان في وسعي إنقاذ (كريم) لو لم أنصع الأوامر أمي؟ هل كانا سيهربان لو لم تكن أمي هناك وعطلهما الحديث معها؟ هل أخرتهما زيارتي؟ كل ثانية تمثل فارقًا.. هذا ما تعلمته يومها.

ظللت فترة لا أتحدث مع أمي، ومع الوقت تفهمت موقفها، لكنني نسيت أن أسألها مرة أخرى عن الطريقة التي عرفت بها عنوان (كريم).



اليوم تعترف أن لديها مثل ما لدي من موهبة، وبدأت أرى كل شيء على ضوء آخر، وأعرف أن توقيت الإنقاذ يشكل فارقا، وكذلك طريقة الإنقاذ.

الأمر أشبه بالسفر عبر الزمن وتغيير تفصيلة صغيرة تؤثر على المستقبل، فتسلك الأحداث مسارات مختلفة، وأكثر إرعابا تخيل أنك رأيت حدثا مستقبليًا، وقررت منع حدوثه مبكرًا، ففي أي لحظة ستبدأ تغيير الأحداث لمنعه؟ أي وقت أنسب للتدخل؛ كي لا تتحول كارثة إلى طاقة كبرى ؟ هل يقدر المرء على معرفة المستقبل، ثم يسيطر على نفسه؛ كي لا يغيره؟ المستقبل يطاردني ويحبسني بين أضلاعه المظلمة النتنة.

مايداي...

مايداي..

ما يداي...

يتردد صوت المنبه..

ثم صوت رنة هاتف ثم أجد نفسي في غرفة الفندق.. جسدي يؤلمني والتنميل يغزو ساقي ويمنعني عن الحركة، هاتف الحجرة يرن... أرفع السماعة فأجد موظف الاستقبال يسألني إن كنت سأغادر أم سامد إقامتي يومًا آخر يوما آخر؟ لماذا؟ أنظر إلى هاتفي المحمول لاكتشف أنني أمضيت يوما كاملا في متاهة الرؤى بن منبه هاتفي مرتين بالفعل ولم يوقظني.

الأمور تتخذ منحى خطرًا يا (يحيى).. قد يأتي تستطيع العودة فيه إلى الواقع.



التساؤلات الخامسة عشرة

يحيى

أعـود إلـى الفنـدق حيـث نقـيم، وأعـرف أن والـد (مـريم) تـوفي وأنهـا سـافرت أرسـل لهـا رسـالة تعزيـة .. لا أسـتطيع مهاتفتهـا وأنا بعد فـي الوضـع المـزري الـذي أنـا فيـه.. تائـه لا أفهـم شـيئا. أتصل بوالدتي، وبدون مقدمات أقول لها:

- مـا محتـوى تلـك الـرؤى التـي رأيـت فيهـا مـن تـدعى (مريم)؟
- لا أظـن أن لهـا علاقـة بـك يـا (يحيـى). طمئنـي أولا، ومـن هـي (مـريم) التـي كتبـت اسـمها ؟ ولمـاذا لـم تـرد علـى اتصالاتي؟

أزفر ثم أرتمي على الفراش وأغمض عيني وأنا أقول:

- سأحكي لك.. لن يفهمني . أحد الآن سواك.

أحكي لهـا كـل شـيء، بدايـة مـن مقـابلتي مـع المنـوم المغنـاطيسـي حتـى اليـوم شـعرت أننـي (يحيـى) الصـغير الـذي يحكـي لأمـه عـن (كـريم) صـديقه لكـن هـذه المـرة والـدتي تصـدق مـا أقـول، ولـم تُشـكك أبـدًا فـي أي تفاصـيل؛ لأنهـا ببسـاطة رأت جانبـا ممـا رأيت!

- لا أصـدق أن هـذا يحـدث يـا (يحيـى)! طيلـة الوقـت تزورنـي رؤى لهـا علاقـة بـك وأنـا لا أفهـم. أسـأل نفسـي مـا علاقتـي بالإيطـاليين والفرنسـيين والتسـجيلات الغريبـة؟ أول مـرة أرى شـيئا كهـذا كنـت طفلـة، ولـم أكـن أرى سـوى مـا لـه علاقـة بمـن أحـبهم؛ أهلـي أصـدقائي



أختي رحمها الله، لكني حمقاء ولم أسأل نفسي لماذا بدأت فجأة أرى رؤى لأشخاص لا أعرفهم، ولا أفهم لغتهم ؟ كيف لم يخطر لي أنها ذات علاقة بك ؟!

- لا أعرف.. هل السبب موضوع الإسقاط النجمي والتنويم المغناطيسي ؟ هل استطعت أن أوصل لعقلك ما أراه مثلما ....

ثم أصمت هنيهة مذعورًا من استنتاجي أردف:

- مثلما وصلت استغاثتي لعقل (مريم)، ووصلت إلى أحلام (ماركو) و (أوليفيه)؟
- الإسقاط النجمي على حسب ما تقول- يُحرر جزءًا من وعيك لينقله عبر الزمان والمكان. أنت فقط غير قادر على السيطرة على هذا الانتقال والعودة إلى حدث محدد رأيته في رؤيا.
- لكني استطعت أن أتواصل مع من رأيتهم في رؤاي، واستطعت وقت الأزمة أن أستغيث بـ (مريم)؛ باعتبارها أقرب من أعرفه جغرافيا.

تتردد أمي قليلا، ثم تقول:

- لكن في كل مرة تتدخل فيها لإنقاذ أحد، تتدهور الأمور أكثر ويتحول الضحية إلى قاتل. هذا ما كنت أخشاه عندما قابلت والدة (كريم) .. هل تتذكر؟
- أنت زرتها في رؤيا؛ لذا عرفت عنوانها؟
- من فرط حبك لـ (كريم)، رأيته هو وأمه في رؤيا. أبوه مختل، ولا يشغل عقله المريض إلا السيطرة على ابنه وزوجته عن طريق إيذاء كل منهما لعقاب الآخر



والضغط عليه. كان فاقدًا للثقة بنفسه، ويتوهّم أن ابنه سيكبر في يوم ويتركه، وأن زوجته ستخونه وتهرب.

تقول لي أمي إنها حفت المرأة في الرؤيا على الهرب؛ انفعالا بما رأته، وكأنها سمعتها.. توقفت عن البكاء فجأة، ونظرت نحو امي كأنما بالفعل وعت وجودها تردف أمي

- يوم أن تقابلنا عرفتني، وهمست لي أنها رأتني، وظننت أنها توهمت ذلك. الهرب لم يكن حلًا جديدا، لكن أحيانًا ما يحتاج المرء إلى من يدفعه لحسم أمره واتخاذ القرار
- هل ظننت أن هربها قد يتسبب في كارثة؟ مثل مقتل (كريم)؟
- لذا نصحتها ألا تهرب.. خشيت أن أتدخل فينهار كل شيء كما اعتدت منذ أيام طفولتي.. لا يتغير المستقبل أبدا إلى الأفضل... ما سيحدث قد يكون أكثر رحمة من الاحتمالات الأخرى.
- ما حدث وما قد يحدث سواء في البشاعة لا يا أمي أومن أن في إمكاننا التغير للأفضل. (ماركو) قتل والده، لكن أمامه فرصة للعلاج النفسي ومن ثم تحمل مسئولية شقيقيه. (أوليفيه) قتل واعترف بجرمه وسجن، لكنه أنقذ عشرات من احتمال سقوطهم في براثن صاحب المطعم.

تقول أمي بصوت مختنق بالدموع

- و(كريم) يا (يحيى)؟
- (كريم) ارتاح يا أمي أكتشف الآن فقط أن الموت ليس بهذه البشاعة.. ربما أنقذناه بهذه الطريقة.



- أخاف عليك يا (يحيى) .. أنت متورط فيما هو قادم.. من يعرف ما تريده (مريم) هذه منك؟ مَن يعرف معنى رؤياك القديمة التي رأيتها فيها؟ هل ستكون القاتل أو ...؟

أقاطعها:

- الضحية؟ هل سأكون الضحية وتنتهي معاناتي، أم القاتل الذي لم يعد يرى أن الموت يستحق الهرب منه ؟ هل سأقدم تضحية مقابل فائدة أكبر ؟ مقابل تلبية استغاثة أخيرة؟



التساؤلات السادسة عشرة

مريم

أنا أحاول الاتصال بـ (يحيى) مرة أخرى، لكنه لا يجيب قلقة عليه حقا.. ليس عليه تحديدًا، بل على موهبته، وأخشى أن يقع في يد الشخص الخطأ.

يبدو أن من صوروا فيديوهات إيطاليا صوروها بالتعاون مع (أنطونيو) عبد المال، ويبدو أيضًا أن ما عُرض لم يكن سوى جزء مما صوّروه كاميراته كانت تعمل بشكل متواصل، فهل ظهر (يحيى) في فيديوهات أخرى بشكل أوضح؟ وجود (يحيى) قرب مطعم (شارل) في فرنسا يجعله عرضة كذلك للكاميرات ألا يمكن أن يكون هذا سبب مهاجمته البلطجية له؟

لكن كيف سيكون (يحيى) قد تورط في هذه الجرائم؟ هل هو المُحرّض عليها بموهبته.. أم تراه تدخل فيها مصادفة أو بالخطأ؟

يجب أن أفهم منه أكثر.. يجب أن أحذره. (يحيى) هو أملي الوحيد بعد سنوات أضناني فيها البحث عن جريمة مثالية. (يحيى) مات من قبل، حدث له ما غير حياته وقتله وحوله إلى شبح مكبوت الغضب؛ بسبب معايير المجتمع وقيود الدين وسلطة القانون صورت من شاشة اللابتوب كادرًا من فيديو يبدو فيه ظهر (يحيى) واضحًا، وأرسلته له على واتساب. هكذا سيضطر للرد علي؛ الفضول أول خطايا البشر، وأكبر نعمة في حياتهم.



لـولاه مـا ركبـوا البحـار وسـبروا أغـوار الفضـاء، لـولاه مـا جربـوا تـأثير القنبلـة النوويـة والفيروسـات القاتلـة المطـورة فـي المعامل.

دقائق ووردني اتصاله.

- كابتن (يحيى)، نحتاج إلى الحديث معا.

هدر صوته في غضب وحيرة:

- من أين لك بهذه الصورة؟!
- لست ضدك يا (يحيى) الآتي يحتاج إلى تركيز أنت تحتاج لسماع ما أريد قوله.
- ماذا تريدين؟ من أين حصلت على هذه الصورة؟!
- متى ستعود إلى أمريكا؟
- غدا.
- في طائرة مستر (فادي)؟
- لا .. اعتذرت بسبب إصابتي ألا يمكننا التحدث عبر الهاتف ؟

أزفر وأقول:

- لا أظنها فكرة سديدة دعنا نتكلم حين تصل، لكن رجاء لا تذهب إلى أي مكان قبل ملاقاتي. لا تأتمن أحدًا. لن أستطيع التصريح الآن بما هو أكثر.

أغلق الخط، ولا يتصل بي هو مرة أخرى. أتمنى ألا يرتكب أي تصرف غبي فكرت أن أقترح عليه تحميل برنامج محادثات آمن، لكن واجهتني مشكلتان؛ الأولى أنني لا أعرف إن كنا مراقبين،



والثانيـة أننـي أحتـاج إلـى وقـت للتفكيـر فيمـا سـأقول لـه، وفـي البحث عن إجابة لسؤاله عن مصدر الفيديو والمطلوب منه.

ما زال أمامي وقت للتفكير.



التساؤلات السابعة عشرة

يحيى

أشعر أن السيد (فادي) ارتاح لأنني سأسافر، أو ربما يخيل إلي هذا مكالمة (مريم) قلبت أفكاري رأسًا على عقب من أين لها بالصورة؟ أنا متأكد أنه لم يكن هناك سواي في المكان يومها. لكن من خلال زاوية التصوير استنتجت أن الصورة ملتقطة من كاميرا مراقبة.

لماذا توجد كاميرا مراقبة في مسقط منزل متهالك شبه مهجور؟

الصورة بدأت تكتمل في عقلي الآن.. لكن ثمة ما يشوش علي.. قلة النوم؟ التوتر؟

أجلس لأدون أفكاري، وقد نويت حرق الصفحات بعدما أنتهي.

من جيل ما زال يحب ملمس الورق وأثر الحبر العفوي عليه يحب البقع والخطأ والمحو وإعادة الكتابة.

يحب آثار خطواته على الأرض المبتلة، كأنها تأكيد أنه لن ينسى ولن تذروا ذكراه الريح.

كتبت التالي:

«عالم الإنترنت العميق أو المظلم منه تحديدا.. (شارل) كان يصور فيديوهات ويرفعها على هذه المواقع».

(شارل) لديه كاميرات مراقبة في أنحاء مطعمه». «قال (أوليفيه) بعدما سلّم نفسه إن هذه الفيديوهات أرسلت إليه،



وبهــذا عــرف نوايــا (شــارل)، وقــرر أن يذيقــه مــن نفــس الكأس».

هل صور (أنطونيو) فيديوهات مشابهة لتعذيب أبنائه ورفعها على مواقع الإنترنت المظلم؟».

(مـريم) تصـور فيـديوهات غريبـة بـدورها.. هكـذا رأتهـا أمـي تفعل».

(مريم) معها صورة لي في منزل (أنطونيو)».

«أحـدهم عـرف أننـي متـورط مـع عمـال المطعـم، وأرسـل لـي مـن يهـددني.. لكـن عنـدما هـددوني لـم تكـن جريمـة (أوليفيـه) قـد وقعـت بعـد هـل شـكوا فـي أننـي أعـرف مـا يحـدث، وأننـي أتيـت لتنبيه الشاب؟ ربما».

«مــن يعرفــون أمــر تــورطي، كيــف عرفــوا؟ مــن كــاميرات المطعـم ؟ لمـاذا شـكوا إذن فـي أننـي أعـرف أكثـر مـن الـلازم؟ ألا يمكـن أن أكـون لصـا أو صـديق أحـد المشـردين.. أو مجـرد عـابر سـبيل طلـب مسـاعدة، ثـم نَمَـت بينـه وبـين أحـد العُمـال صداقة؟».

(يحيـى) .. لقـد عشـت حياتـك كلهـا منغلقـا علـى نفسـك، فلمـاذا فتحت هذه الثغرة التي نفذ منها كل هذا؟!

دعنــي الآن مــن كــل التفاصــيل المهــم (مــريم). (مــريم) معهــا صــورتي، إمــا لأنهــا ذات صــلة بمــن يصــنعون فيــديوهات التعـذيب تلـك، وتحـاول الآن التقـرب منـي أو اسـتدراجي لمكـان فــي الولايــات حيــث يســتطيعون الــتخلص منــي.. وإمــا أن الصور



قد وصلت (مريم) من طرف ثالث، مثل ذلك الذي أرسل الفيديوهات لـ (أوليفيه).. وإما أن (مريم) عرفت بالمصادفة؛ لو أنها ترفع أفلامها على الإنترنت المظلم أو تتابع أخبار الجريمة، وارد أن تكون المصادفة قد خدمتها.

أيا كان التفسير من الثلاثة ماذا تريد (مريم) مني؟ لماذا تحذرني وهي متورطة في هذا الجنون؟

كيف أتصرف؟

لن تتحمل أمي القلق لو صارحتها

ليس هناك من يرشدني أو يساعدني الآن إلا شخص واحد فور عودتي إلى أمريكا اتصلت بالمنوم المغناطيسي مباشرة، وأخذت منه موعدًا، فانطلقت إلى بيته؛ الأمر عاجل وخطير يستقبلني الرجل بقلق بالغ ، فأحكي له كل شيء بالتفصيل.

- كابتن (يحيى) ما هذا الذي ورطت نفسك فيه؟! لماذا لم تطلب المساعدة من البداية بخصوص أول رؤيا؟ لم يكن عليك أبدا أن تسير بمفردك في هذا الطريق.

أقول له يائسا والشمس في شرفة منزله تخترق نظارتي الشمسية:

- هذا ما حدث .. طباعي منعتني من الحديث عن الأمر مع أي شخص غريب.
- هل لديك أي أدلة نستطيع بها إثبات تورط هذه الـ.. . العصابة في الجرائم؟
- لا أعتقد أن المحكمة تأخذ بشهادة المستبصرين مثلي ومثل والدتي. لا يوجد سوى أدلة جرائم فرنسا ذات



الصـــلة بـــأفلام الإنترنـــت المظلـــم... لكـــن كيـــف أثبـــت أن هناك خطرًا علي ؟

يميل (كيفين) مستندا إلى قبضته ويقول:

- إمـم.. محضـر الشـرطة عنـدما هاجمـك بلطجيـة فرنسـا؟ لا .. ليس هذا دليلا على أي شيء.

يكمل في شرود كأنما يحدث نفسه:

- بـــالطبع لا نعـــرف مـــا قـــد تريـــده (مـــريم) منـــك، لكنـــي أنصـــحك ألا تـــذهب وحـــدك لـــن نبلـــغ الشـــرطة بالتأكيـــد؛ لأنهـا تبتـزك بصـورة لـك فـي مسـرح جريمـة حتـى لـو انهـا هـــى مـــن دبـــرت لهـــا لا يوجـــد دليـــل، ولا نعـــرف إن كـــان لـــديها المزيـــد مـــن الأفـــلام تؤكـــد مشـــاركتك فـــي الجـــرائم. تـــذكّر أنـــه فـــي جـــريمتين شـــهد الجانيـــان أنهمـــا رأيـــاك فـــي أحلامهما.
- لـــن يأخـــذ أحـــد بـــالأحلام، لكـــن لـــو وضـــعت هـــذه المعلومـــة إلـــى جـــوار صـــور أخـــرى لـــي فـــي مســـارح الجريمـــة.. أنـــت تعرف ما قد يحدث لمستقبلي.

يضحك (كيفين) فجأة وهو يهز رأسه كمن يطرد فكرة تافهة

- لـــو أننـــي لا أومـــن بتلـــك القـــدرات الفائقـــة، لظننتـــك مجرمـــا فعـــلا تتلاعـــب بـــي لإثبـــات براءتـــك. عمومـــا، أقتـــرح أن تقابلهـــا فـــي مكـــان عـــام مـــزدحم... مكـــان تحـــدده أنـــت قبـــل المقابلـــة بوقـــت قليـــل. دعنـــا نعـــرف أكثـــر ونستكشـــف حدودنا.
- قبـــل أن أذهـــب أحتـــاج إلـــى معرفـــة المزيـــد عنهـــا. مـــا أنـــا متأكـــد منـــه أنهـــا مختلـــة مجنونـــة متورطـــة حتـــى ذقنهـــا فـــي



بشـاعات الإنترنـت المظلـم. (مـريم) خطـرة، لـديها ثبـات انفعالي غريب..

سـايكوباتية كمـا يقـول الكتـاب حسـب مـا عرفـت عـن تقييماتهـا قبيـل عملنـا معـا فهـي نالـت تقـديرات مذهلـة عـن اختبـار الثبـات الانفعالي.

يسألني (كيفين):

- هل سألت عنها في شركة الطيران؟
- نعـم.. معـي بياناتهـا كاملـة، ولا يوجـد مـا يريـب بشـأنها، وسـجل سـوابقها ناصـع .. لـي معـارف فـي الشـرطة أكـدوا لي هذا.
- وأنت ووالدتك رأيتماها في رؤاكما.. هل أنتما متأكدان؟
- أكيـد.. لـي طلـب منـك كـي لا أعطلـك أكثـر.. هـل يمكنـك أن تنيمنـي وتجعلنـي أرى مجـددًا تفاصـيل الرؤيـا التـي رأيتهـا فيهـا وأنـا طفـل؟ تلـك التـي نظـرت لـي فيهـا كأنهـا تراني.. أريـد أن أعـرف مـاذا كانـت تفعـل، ومـع مـن كانت.

زفر الرجل، ثم قال وهو يهز كتفيه

- إن كان هذا ما تريد.. أوكاي.

وبـدأت رحلـة الماضـي التـي سيرشـدني فيهـا صـديقي المنـوم المغناطيسـي، وسـيكون مسـئولاً فيهـا عـن تـوجيهي وإعـادتي للواقع..



ليت جسدي يستسلم للثقة بمخلوق آخر سواي.. أذكر نفسي أنني أنا من ذهبت إلى (كيفين) وطلبت مساعدته.. الرجل لم يسع إلي..

ثق به يا (يحيى)..

الظلام يجرفني إلى محيطه..

مايداي...

الفيل المُجنّح العظيم يتبدّى لي يخرج لي لسانه، ثم نبدأ الصيد..



الإجابات الأولى

مريم

اتصل بي (يحيى) وطلب مني اللقاء في حديقة عامة... اقترحت عليه المكان الذي أجري فيه يوميا، فوافق لا ينقصني الآن إلا مدخل كلامي معه.

لا بد أن يطمئن لي، ولا بد أن يقتنع أنني لا أخفي عليه شيئا، وأن رقبتي تحت حذائه لا العكس.

في الموعد نلتقي.. أراه يسير نحوي وقد فقد وزنا، وشحب وجهه ليتني أستطيع رؤية عينيه.

- هلا أخبرتني بما يحدث!

أخلع نظارتي العاكسة، وأقول له وأنا أحثه على السير:

- أكيد.. أنا من طلبت لقاءك هيا نتحدث ونحن نسير؛ هذا أفضل كي لا يسمعنا أحد.

يهمس لي:

- هل نحن مراقبان؟
- كل شيء ممكن. (يحيى)، لن أدور حول الموضوع أكثر من هذا.. لنا جميعًا متع صغيرة يعتبرها الآخرون انحرافا... ثمة من يأكلون طيلة الوقت، ومن يدمنون على الإباحية ومن يتلصصون على جيرانهم
- مفهوم.. وهناك من ينتشون بالقتل، أليس كذلك؟

أضحك وأقول له :



- هو كذلك لن أستهين بذكائك الصورة معي، وجدتها بالمصادفة على نفس القناة التي تعرض أفلام (شارل)، لو أردت الاستنتاج النهائي سأقول لك إن من يصنع هذه الأفلام واحد، ولا بد أنه يعرفك ولديه صور لك وهو من أرسل البلطجية في إثرك.
- أكملي.
- أنت في خطر يا (يحيى) لا أعرف سبب وجودك في مسارح تلك الجرائم، ولا أتوقع أن تبرر لي هذا، لكني في وسعي مساعدتك.. يمكننا أن نعرف من هو مموّل هذه الأفلام ونتخلص منه معا.

يتوقف عن السير ليحدق إلى وجهي ويقول:

- نتخلص منه معا؟

أتأبط ذراعه ليتابع السير وأجيبه:

- هل لديك حل آخر؟ نبلغ عنه الشرطة مثلا؟ ماذا عن صورك معه؟ أنا شخصيًا يا (يحيى) لست مستفيدة من تنبيهك.. كان في إمكاني أن أتجاهل ما حدث وأصمت.. لماذا أزعج نفسي؟ ما مصلحتي؟
- أخبريني أنت عن مصلحتك في الأمر.. ما مقابل مساعدتي؟
- العدالة يا (يحيى) .. الجريمة لها وجهان مثلها كمثل أي شيء آخر.. لماذا نرى القتل تصرفًا سلبيا مع أن الحروب نوع من القتل، ولا يُحاسب أحد عليها؟ الطبيعة تحوي القتل للحفاظ على التوازن البيئي.. المحاكم تقتل للقصاص. أليس كذلك؟ العالم ليس ،عادلاً



ولا يفلح القانون في كل مرة في إثبات الجريمة وعقاب الجاني، بل إن كثيرًا ما يُعاقب المجني عليه.

يتملص من ذراعي وهو يهتف:

- لا أفهم ماذا تريدين؟!
- أنا أهتم بالجرائم وأدرسها منذ زمن.. أهتم بتأثيراتها السلبية والإيجابية، بالضحايا والقتلة.. بالبيئة التي تحدث فيها الجرائم، وكيف يمكن استغلال من لديهم ميول إجرامية بشكل مبدع وخلاق... كيف نصنع الجريمة المثالية.
- وكيف تتوقعين مني مساعدتك فيما تزعمين؟ ألست قلقة من كشف أوراقك أمامي هكذا؟
- كشف ؟ ماذا قد يُدينني فيما قلت؟ لا عقاب على النوايا والأفكار وما لا يمكن إثباته.. هذا بالضبط ما أنت مميز فيه يا (يحيى).
- لا أفهم.
- لا عقاب على النوايا والأفكار وما لا يمكن إثباته أنا وأنت نعرف جيدا قدراتك الحقيقة عموما، أنا لا أنتظر منك قرارًا الآن، لكن تذكر أنك في خطر.

ثم أضيف باللهجة المصرية

- وسرك في بير .. ! لا تقلق.

أترك (يحيى) واقفًا في مكانه يفكر فيما قلت...

الصبر مهم.. الصبر هو ما سيجعله مضطرًا لي أصل إلى البيت، فأجد سيارة عتيقة تقف أمامه، وبداخلها سيدة ترتدي



الأسود، ويبدو عليها الحزن ربما هي من معارف أبي وعرفت لتوها أنه رحل أفكر في الابتعاد حتى ترحل؛

لا مزاج لي لاستقبال أحد، خاصة أولئك المصريين الثرثارين العاطفيين، معارف أبي.

بمجرد أن بدأت التراجع بالسيارة، رأتني المرأة وخرجت من سيارتها، ودققت في وجهي بشكل غريب. تنادي علي باسمي دون ألقاب.

- (مريم)

أترجل من سيارتي بعدما أوقفها بمحاذاة الرصيف. شكلها مألوف لكن بالتأكيد لم أرها من قبل.. مصرية هي لا أحد ينطق اسمي بهذه الطريقة إلا المصريون. ربما صديقة لأبي...

لكن هل يجعلها هذا تناديني باسمي المُجرد؟ وطالما لا أعرفها، كيف عرفتني هي؟

أقول لها بالإنجليزية:

- مساء الخير هل تعرفينني؟

فتقول بالعربية

- (مريم).. أنا خالتك يا (مريم).. نوال حمزة.
- آه، خالتي بالطبع أعرف أن لدي خالة.. أخبرني أبي أنك عدت إلى مصر وانقطعت أخبارك بعد وفاة أمي.. دائما كان يذكرك بالخير متى عدت إلى الولايات؟

ثم أردف:



- اعذريني، لن نتحدث هنا .. تفضلي

أدعوها إلى المنزل.. ألاحظ أن وجهها شاحب ويديها ترتجفان ظلت تنظر حولها في قلق كأنني سأخطفها... أتمنى ألا تطيل الزيارة.

أقول لها بالعربية التي تُصر على استخدامها وهي تعبر الباب:

- البقية في حياتك.
- أشكرك.. تعازي لك. أعتذر عن اختفائي عن حياتكم فجأة..

عرفت متأخرا نبأ وفاة الوالد من خلال الفيسبوك

- أنت تتابعين حساب أبي على فيسبوك؟ لهذا تعرّفت علي.

تجلس خالتي على أقرب أريكة من الباب، وتقول:

- لا أتابعه، لكن بيننا معارف مشتركين، وعرفتك من خلال نشرهم لبعض الصور لك مع والدك.

أضحك وأقول مخفية اكتشافي لكذبها

- يقولون إن شكلي اختلف عن الصور القديمة. هل هذا حقيقي؟

لا توجد صور لي مع أبي قط.. المرأة تكذب.

- ملامحك ذاتها يا (مريم)... ربما شكلك اختلف بالنسبة لمن ليسوا من العائلة، لكن بالنسبة لي لم تتغيري أبدًا.

أقول متعجلة وأنا بعد واقفة أمام مدخل المطبخ



- أنرت المنزل هل أحضر لك ما تشربينه؟

فتلتقط إشارتي وتقوم وهي تقول:

- أشكرك .. أنا سأرحل الآن.. إن احتجت أي شيء هاتفيني.

وأخرجت من حقيبتها الصغيرة دفترا كتبت على صفحة منه رقمها آخذ الورقة منها ثم أقول :

- لديك رقم هاتف أمريكي؟! ألا تقيمون في مصر؟
- هذا أمر يطول شرحه لكنني هنا في أمريكا.. طمئنيني عليك دائما.



الإجابات الثانية

يحيى

أعود إلى بيتي فلا أجد أمي.. أتصل بها فتخبرني أنها ذهبت في زيارة وستحكي لي لاحقا، وطلبت مني ألا أخرج وأنتظرها.

لا أعرف أين هي لكني استنتجت ما تريد محادثتي فيه، ولا أصدق أي سبب يجعلها تخفي عني : كل هذه الحقائق طيلة حياتي.

من خلال زيارتي لرؤاي، التي ساعدني (كيفين) في الوصول إليها، عرفت أن (مريم) ابنة خالتي؛ لهذا رأتها أمي في رؤاها؛ أمي لا ترى رؤى الأغراب أو من ليس لهم علاقة بمن تعرفه في البداية ظنت أمي أنها رأت (مريم) لأنها تعرفني، لكن يبدو أن هناك سببًا آخر.

أنا لم أرَ خالتي ولا ابنتها قط، وبحسب كلام أمي فقد عادوا إلى مصر وانقطعت أخبارهم كان عندي وقتها عشر سنوات..

خالتي كانت مريضة دائمًا ولا تزورنا، ولم تصحبني أمي معها قط أثناء زيارتها، ولم أكن أعرف السبب.

ما رأيته أثناء جلسة التنويم المغناطيسي كان صعبًا ومرعبًا، ولا بد أن أقرر في الدقائق التالية إن كنت سأتدخل وأغير ما رأيته، أم أن هذا مصيري والطريقة الوحيدة التي سألبي بها نداءات الاستغاثة.



ربي.. لقد تعبت.. لن أستطيع الانسحاب من حياتي الجديدة، ولن أستطيع أن أخذل (كريم) مرة أخرى، وكل (كريم) آخر لن يجد من يستغيث به.

هل أحتاج إلى (مريم) ؟ لا أعرف ما قد تقدمه لي، لكننا قريبان.. وهي مسئوليتي مهما كانت مسئوليتي أن أمنعها عن القتل، أو أحميها من القتل.. هذا يتوقف على تفسير أول رؤيا لي في حياتي.



الإجابات الثالثة

مريم

وأنا أوصل خالتي إلى سيارتها اكتشفت فجأة لماذا شعرت أنها مألوفة الملامح.. لا، لم تكن تشبه والدتي، بل (يحيى)!

نفس مخارج الحروف في كلمة (مريم)، نفس استدارة الوجه والأنف والشعر الثائر.

آه.. الحلم الحلم الذي رأيته يوم ماتت كلبتي، ورأيت فيه الطفل الذي كان يرمقنا في حزن. هذا الطفل هو (يحيى)..

(يحيى) الذي لا تثبت ملامحه في الذاكرة، ويغطي نافذة روحه دائما عينيه.

قبل أن تركب سيارتها، تصنعتُ ،الدوار، وحاولت أن أتسند على أي شيء؛ كي لا أسقط. تشبثت بحقيبتها حتى سقطت معها أرضًا، وأنا أخفيها بجسدي. تقول المرأة في جزع

- (مريم)؟! ما بك؟
- معذرة.. لا أعرف ماذا دهاني هلا أحضرت لي حقيبة يدي من الداخل؛ بها دوائي.

تربت المرأة على كتفي ثم تهرع إلى البيت.. ما إن اختفت عن نظري حتى فتحت حقيبتها وأخذت منها المحفظة، وتركت الحقيبة شبه مفتوحة.

تعود لتجدني مكاني آخذ منها حقيبتي، وأخرج قرصا مسكنا وأبتلعه دون ماء.

- هل تودين أن أصحبك إلى الطوارئ ؟



أجيبها مدعية الوهن

- ليس له لزوم.. سأكون بخير ساعديني فقط كي أدخل... هل يمكن أن تمكثي معي دقائق حتى يبدأ مفعول الدواء؟

تلف ذراعها حول خصري وأنا أمسك حقيبتينا، حتى تجلسني على نفس المقعد الوثير الذي كانت تجلس عليه منذ دقائق. تمكث معي قليلا ثم تطلب مني رقم هاتفي لتطمئن علي فأعطيه لها.

ترحل، فأفتح محفظتها وأجد فيها ما يثبت أنها والدة (يحيى)؛ اسمها بعد الزواج هو اسم والد (يحيى) بالطبع هم مثلنا، يحملون الجنسية الأمريكية. يمكنني طلب مساعدة بعض معارفي على الإنترنت المظلم لمعرفة كل شيء عنها أتصل بها أولا وأخبرها أن محفظتها سقطت عندي فتقول لي إنها ستعود لي خلال نصف ساعة.

أغلق المحفظة وأنظر إلى النافذة أمامي، فأرى مجموعة سيارات سوداء دون لوحات أرقام تصطف أمام بيتي هذا أمر مريب، لكنه متوقع لو أن لك صلة بأي أمور مشبوهة..

بهدوء آخذ حقيبتي السوداء الصغيرة التي لا تفارقني، وأضعها في أخرى قماشية أكبر، وأدس معها اللابتوب والموبايل الاحتياطي. أقصد الحمام فأعتلي المرحاض وأخرج من النافذة التي تطل على باحة خلفية أسير بسرعة من فوق أوراق الشجر الجافة محاذرة أن أصدر صوتا. لن أهرب إلى الغابة؛ لأني سأكون مكشوفة فيها، فاخترت أن



أختبئ تحت شارب القط؛ المكان الذي لن يبحث فيه من يطاردون هاربة.

أفتح حقيبتي القماشية العملاقة القابلة لتعديل الحجم، وأضعها جوار أدوات النجارة جوار المرأب، ثم أتكوّر داخل الحقيبة وأغلقها على نفسي. مزية أخرى من ميزات الرشاقة والمواظبة على التمارين.

أعرف أنهم سيقلبون المنزل بحثًا عني، لكن لن يبحث أحد عن امرأة داخل حقيبة وسط مخلفات.



الإجابات الرابعة

يحيى

تـأخرت أمـي.. أتصـل بهـا لكـن هاتفهـا المحمـول خـارج نطـاق الخدمــة. لا أعــرف أيــن هــي تحديــدًا.. هــل ذهبــت لـــ (مــريم) لتعزيتهـا فـي وفـاة أبيهـا كمـا أخبرتنـي مـن قبـل؟ قالـت لـي إن الفضـول يـدفعها دفعًـا لزيارتهـا ورؤيتهـا عـن كثـب، لكنهـا لـم تخبرنـــي بخططهـــا؛ خشـــية أن أمنعهـــا. لكـــن كيـــف ســـتعرف عنوانها؟

أمـي تخفـي عنـي شـيئًا .. هـل لـو رأت (مـريم) سـتعرف أنهـا ابنــة أختهــا؟! ربمــا لــم تتعرفهــا فــي رؤاهــا؛ لأنهــا -كمــا قالــت - كانت متنكرة.

لو حدث لها مكروه فسأراه في رؤاي، أليس كذلك؟

أنـا قلـق بالفعـل.. لـيس أمـامي سـوى الـذهاب إلـى منـزل (مـريم)؛ لأرى إن كانـت سـيارة أمـي هنـاك؛ عنوانهـا معـي مـا لـم أتـدخل اليــوم، ســيحدث أمــر يجمعنــي أنــا و(مــريم) وأمــي فــي مكــان واحد.. مصير مشترك.

لكـن هـل أنـا لـم أتـدخل بعـد؟ معرفتـي بتفاصـيل مـا سـيحدث تدخُّل يمكن أن يغير المستقبل.

أبــدل ملابســي، وتلفــت نظــري أضــواء ســيارة فــي الشــارع الهادئ المظلم.. ربما هي أمي وقد عادت.



أنظر من النافذة؛ ذات النافذة التي رأيتها خلالها أول رؤاي، فأجد سيارة سوداء ينزل منها (فادي) ورجلان ضخمان، ميزت منهما واحدًا ممن ضرباني عند مطعم (شارل). طرقوا على باب بيتي، فأذهب إلى الهاتف وأتصل بالنجدة وأخبرهم بعنواني، وبأن هناك مسلحين يطرقون بابي.

استمر الطرق، ثم انفتح الباب بطريقة ما من الخارج، طريقة لا عنف فيها. أقف على دَرَج الطابق الثاني، أرى الرجلين يدخلان أولًا، ثم يتبعهما (فادي) بصلعته البراقة وشاربه وأناقته السمجة.

- كابتن (يحيى)، كيف حالك يا صديقي؟ لا تخبرني أنك لم تعرف بقدومي ؟ ستخيب ظني فيك هكذا.
- وكيف لي أن أعرف؟ وكيف دخلت؟

رمى أحد الرجلين مفتاح دارنا على المنضدة. رباه! من أين حصلوا عليه؟ يقول (فادي) وهو يجلس على الأريكة واضعًا ساقًا فوق الأخرى:

- لنجلس أولًا.. يبدو أنك قلق على الوالدة.. لا تقلق؛ هي معنا بالأسفل، لكني أريد الحديث معك قبل كل شيء.

صحت في غضب:

- معكم ؟ اجلبها حالًا! الشرطة في الطريق.

فيقول هو في هدوء:

- ليس من مصلحتك إبلاغ الشرطة.. معنا أفلام تثبت وجودك المثير للريبة في محيط جرائم، ومعنا شهادات مجرمين يقولون إنهم يعرفونك، وإثباتات على معرفتك



بــ (مــريم)، ولقائكمــا أكثــر مــن مــرة خــارج نطــاق العمــل. أنت تعرف ماذا تفعل (مريم) بالضبط طبعًا.

- لن أتضرر وحدي، ستضيعون معي.
- ولمــاذا نضــيع؟ أيــن إثباتــك أننـــي أمــارس أي عمــل غيــر قــانوني؟ والــدتك لــن تشــهد أننــا آذيناهــا؛ لأننــا لــم نؤذهــا حقًّــا.. ولأن شـــهادتها ستضـــرك. غيـــر كـــل هـــذا، معـــي رجـــال يرغبـــون فـــي تحمـــل أي اتهامـــات نيابـــة عنـــي. النهاية سأظل موجودًا ولن يخسر أحد سواك.
- ماذا تريد؟
- قبـل أن أبـدأ حـديثي، معـي جهـاز تشـويش علـى أي جهـاز تسـجيل صـوتي أو مرئـي، فـلا تتصـور أن كـاميرا مراقبـة منزلك تلتقط أي شيء مما يدور هنا اتفقنا؟

أتصلب مكاني دون رد فعل، فيُكمِل:

- هـل تعـرف أننـي شـريك فـي شـركة الطيـران التـي تعمـل فيهـا؟ اختـرت (مـريم) ودفعـت لهـا زيـادة عـن غيرهـا؛ كـي تكـون تحـت مراقبتـي بعـدما عرفـت رؤيتهـا المختلفـة فـي إبـــداع أفـــلام حقيقـــة.. بســـيطة.. مرعبـــة .. تصـــورها لمزاجهـــا الشخصـــي ومتعتهـــا. هـــذه قمـــة الإبـــداع يـــا صـــديقي. ليســـت (مـــريم) الوحيـــدة التـــي أراقبهـــا، ولا الوحيـدة التـي أخطـط لضـمها إلينـا، بالرضـا أو بالغضـب. دعنـــي أحـــدثك فيمـــا يخصـــك.. لا تعـــرف (مـــريم) أننـــا اخترقنـا حسـابها علـى الـدارك ويـب.. هـي ذكيـة، لكـن لـيس لـديها إمكاناتنـا. كمـا تعـرف عـن الـدارك ويـب، يمكنـك شـراء أي شـيء؛ تكنولوجيـا، موهبـة نـادرة لـم يسـمع بهـا أحد من قبل...



أقاطعه وأنا أقترب خطوة خطوة من باب المنزل:

- لا أفهم فيم سأفيد مشروعك المريض هذا!

يشير بخفة إلى أحد رجليه، فيتحرك ليسد الباب، ويقول:

- (يحيى) أنت ترى الجرائم المستقبلية، وقائمة البحث على متصفحك على الإنترنت تشهد بذلك.. تواجدك في مسارح الجرائم يشهد يبدو أنك قادر أيضًا على زيارة أحلام الناس، ودفعهم لارتكاب جرائم بشعة؛ دفاعًا عن أنفسهم من جرائم لم تُجن في حقوقهم بعد. لدي سؤالان لو سمحت.
- سَل.
- هل ثمة عقاب قبل وقوع الذنب؟

أفكر في الفخ الذي يستدرجني إليه، ثم أجيب:

- لا.
- أنت من أوحيت للولد الإيطالي والشاب الفرنسي بتفاصيل دفاعهما عن نفسيهما. لم تطلب منهما مثلًا أن يهربا.. لا.. أنت دسست في عقليهما الانتقام البشع.. المُبدع! كيف تختلف عني وعن (مريم) إذن؟

اتسعت ابتسامته وهو يشعل سيجارة رفيعة بنية، ويقول لي محدقًا إلى عيني.. المكشوفتين:

- أنا أرسلت لـ (أوليفيه) من يخبره بما يفعل (شارل) في زملائه.. أردت أن أمنحه فرصة لتهريب رفاقه والهرب بنفسه؛ كي أختبر تأثيرك... أنت تأثيرك أقوى

يـا (يحيـى)! العنـف مقابـل العنـف خيـار رابـح دائمًـا. ألا تتذكر حديثي عن التجارب الفنية؟

تزلزل ضحكته كياني. أصمت، فيُردف:

- إذن الصـمت علامــة الرضـا كمـا تقولـون فـي مصـر... توقـع عقابًـا علـى جـرائم لـم تحـدث بعـد، وتـورط آخـرين فـي بشـاعات لا تنقـذهم فـي النهايـة تـدخُلك فـي حـد ذاتـه يزيـد عـدد الضـحايا. بعـد كـل هـذا، أمـا زلـت تـرى جنـاحي الملائكـة ينبتـان مـن خلـف ظهـرك يـا صـديقي؟ إن كنـت ملاكاً، فأنت ملاك الموت لا أكثر.
- ما المطلوب لتعيد لي أمي؟
- أحضـــرتها معـــي كـــي أثبـــت حُســـن نيتـــي، ولـــو وافقـــت سأســـلمها لـــك الآن. المطلـــوب بســـيط.. أن تعمـــل معنـــا احـتفظ بعملـك طيـارًا، واحـمِ عائلتـك، وفكـر فـي عواقـب الرفض.

يقــوم (فــادي) مغلقًــا زِر سُــترته، تاركًــا سـيجارته مشـتعلة فــي المطفأة، ويضيف:

- وكـي أثبـت أننـي أثـق برجاحـة عقلـك؛ سـأتركك حتـى الغد لتفكـر وحتـى الغـد، سنشـرف بصـحبة والـدتك، وأسـمح لـك بالاتصـال بهـا؛ كـي تتأكـد أنهـا آمنـة.. إلا لـو وافقـت الآن، ووفرت على الوالدة المشقة.

يسير (فادي) نحو الباب، فأصيح فيه:

- إلــى أيــن تــذهب؟! ســآخذ أمــي الآن وليحــدث مــا يحــدث ســوف تبلغـون عنـي الشـرطة ؟ أبلغـوهم.. لـن أتـرك أمـي معكم.



يتوقف (فادي)، ثم يلتفت نحوي مبتسمًا ابتسامة الثعالب تحت عينيه العسليتين، ويقول:

- هل تعرف يا (يحيى) لماذا لم أوذها؟ كي لا تعر ما سأفعله بها قبل أن أفعله فتحترز للأمر أنت لا ترى سوى الجرائم، وأنا شخص مسالم يستحيل أن يتعقبني أو يعرف خططي من هم مثلك لكن لو أحببت أن ألوي ذراعك فلدي خطط خاصة، حتى لو عرفتها عن طريق رؤاك، فلن تفهم علاقتها بك، ولن تستطيع التدخل فيها لنتحدث غدًا بعدما تهدأ.

أندفع نحوه في طيش، فيمسكني أحد الحارسين، ويفتح الآخر له الباب.. بمجرد أن يخطو خارج الإطار الخشبي، يسقط أرضًا وهو يقبض على عنقه.

يتركني الحارس الآخر وأنطلق نحوه، لكن أحدهما وضع كفه على عينه فجأة وتهاوى أرضًا، أما الثاني فرفع مسدسه وراح يبحث عن.. عمن يبحث؟ وماذا حدث لهما؟

ليس هناك أي صوت لسلاح.. حتى كاتم الصوت له صوت**!** إلا إذا كان مُطلق الرصاص -أو أيًا كان- قناصًا محترفًا يختبئ بعيدًا. لكن أين؟

ألاحظ أن الدماء التي تسيل من عنق (فادي) قليلة، والحارس الثاني خرّ جثة هامدة بعدما اخترقت الرصاصة عينه إلى مخه.

أعدو نحو السيارة، لكني لا أرى أمي فيها.. السائق مصاب أيضًا، لا بطلق ناري، بل مذبوح.



يلفت نظري في الظلام من يسير عند الجهة المقابلة من المنزل.. (مريم).. تحمل عصًا طويلة وتسير بهدوء وثقة جوار سور حديقة الحارس الحي المتبقي في معطفه البني راكع جوار (فادي)، ويتحدث في هاتف محمول.

تنظر لي (مريم) .. نفس النظرة التي رأيتها وأنا طفل.. نفس المشهد! لكن بعدما تنظر إلى نافذة حجرتي بالأعلى كأنني.. كأنني طفل أنظر إلى المشهد منذ خمسة وثلاثين عامًا..

طفل يستغيث بنفسه في المستقبل!

ترفع (مريم) العصا إلى شفتيها، ثم تنفخ بقوة، فينطلق سهم صغير يرشق في عنق الحارس.

ما تحمله (مريم) سلاح بدائي لدى سكان أمريكا الأصليين، يدعونه الآن «Blowgun» ، أو سلاح النفخ. هذا السلاح يُلقم بطلقات سامة منقوعة في سم الكورار المستخلص من بعض الكروم الخشبية. نحن في وايومينج على أية حال، من أكثر الولايات التي تنتشر فيها محميات الهنود الحمر.

اختيار فائق الذكاء يا (مريم).. صلاح بدائي يمكن أن يصنع في أي مكان في العالم، ولا تكتشفه أجهزة رصد الأسلحة في المطارات.

أفطن إلى أن ما أمامي ليس بالضبط ما رأيته طفلًا؛ كل الأحداث تغيرت قليلًا؛ لأنني تدخلت في جرائم سابقة أوصلتنا إلى هذه النقطة، وأوصلت (مريم) لأن تقتل دفاعًا عني.. أو دفاعًا عن مصلحتها معي على الأقل.



أدخل إلى بيتي وأستعيد هاتفي، أفكر في الاتصال بالنجدة مرة أخرى وأطلب منهم ألا يأتوا.. أم الأفضل أن أستعجلهم؟! اللعنة.. اللعنة!

الإجابات الخامسة

مريم

خالتي العزيزة معي في مخبأ لا يعرف أحد مكانه من يتعاملون مع الدارك ويب يحتاطون لهذه التفاصيل.

لم أقتل مستر (فادي)؛ سم الكورار بهذه الطلقات البدائية لا يقتل إنسانًا، لكنه قد يشل عضلاته لفترة معقولة. تسهيلًا على (يحيى)؛ حقنت الحارس المتبقي بنفس السم، فمات، وأخذت منه أسلحته وجهاز التشويش.. وتركت مصير (فادي) في يد (يحيى).

لست أنا من يمسك الريشة في يد المبتدئ ليرسم عنه أفضل لوحاته.

أتصل بـ (يحيى) من رقم جديد وهاتف جديد وأنا في المخبأ ...

- والدتك معي يا (يحيى) .. لن يتركونا بسهولة.. اهرب واختبئ ثم لنتحدث لاحقًا .. لكل معضلة حل عندي. المهم، (فادي) ممدد أمام منزلك، وجواره محقن معبأ بسم الكورار... كل ما عليك أن تحقنه به؛ لنكسب وقتًا حتى تجمع مؤسسته أوراقها وتتبعنا مجددًا.



لـو تركتـه، فهـذا اختيـارك يـا (يحيـى) .. سـأترك والـدتك تعـود لـك وأنـت حـر بعـدها فـي حياتـك. لكـن تـذكر، لـن يتركـك أحـد وشأنك بعدما حدث.. أنا فقط من يستطيع تهريبك.

تشاو!

لـم أنتظـر رده.. بالتأكيـد سـيهاتفني سـريعًا، علـى الأقـل ليعـرف مكان أمه.

أتخيـل وصـول الشـرطة لتجـد هـذه المذبحـة.. طريقـة قتـل غيـر متوقعـة، ومنـتج سـينما قتيـل، ولا مشـتبه بـه سـوى (يحيـى) الذين قتلوا أمام بيته. كيف قتلهم؟ ولأي سبب؟ هذه مشكلته.

أجلـس علـى إطـاري سيارة قـديمين فـي ورشـة إصـلاح سـيارات مهجـورة هـي مخبئـي. تقـول لـي والـدة (يحيـى) مـن مقعـدها الخشبي الرث:

- مـا الـذي ورطـك فـي كـل هـذا يـا ابنتـي؟! أبلغـي الشـرطة.. ربمــا أن شــهادتك مــع شــهادة (يحيــى) لــن تنقــذكما مــن السجن، لكنها ستوقف المذابح التي تُرتكب كل يوم!

أضحك وأقول:

- شــهادتانا ســتوقفان المــذابح؟ أي مــذابح؟ مــذابح الــدارك ويــب ليســت كلهــا آثــام (مــريم) و (فــادي).. أم تقصــدين مـذابح الحـروب، أو المـذابح الدينيـة أو الإبـادة العرقيـة، أو اختيـار مـن يُعـالج ومـن يمـوت؛ حسـب الحالـة الماديـة ولـــون البشـــرة، أم مـــذابح الصـــمت علـــى كـــل هـــذه الانتهاكـات المـذابح لـن تتوقـف ولـيس أمامـك إلا خيـاران؛ أن تكونـي ضحيتها أو مرتكبتها.



- هذا كلام غير صحيح.. أنت مريضة يا ابنتي، ويجب أن تُعالجي أنا رأيت كيف ماتت أختي يا (مريم)، ولن يصدق أحد أن طفلة في السابعة قتلتها!

أبتسم فخرًا وأقول:

- رأيت؟ أها.. أعرف الآن أن (يحيى) ورث موهبته منكِ! أنتما تحفتان فنيتان!

تضيق المرأة عينيها، وتسأل بصوت راجف

- كيف عرفت أمر موهبة (يحيى)؟
- فقط عرفت أمي كانت تُعذب بمرضها، وأدويتها لم تنفع في شيء، فما فائدة الأدوية اللعينة؟ ما يفعله الأطباء لا يختلف عما أفعله الآن.. يجربون تركيبات على البشر ليفهموا أكثر.. أنا أيضًا أريد أن أفهم أكثر، أريد أن أستغل الألم والموت؛ كي لا يستغلاني.
- أنا رأيت كل ما فعلته وأنت صغيرة.. قطعت والدتك علاقتنا؛ كي تحميك من الفضيحة.. كانت تريد معالجتك لتصيري ابنة سوية تفخر بها .. وفي النهاية قتلتِها. لا يعرف أحد ما فعلته بها سواي يا (مريم). أردت أن أمنحك فرصة أخرى مع والدك.. لكن للأسف.. رأيتك تقتلين الناس بالمحاقن... لم أتعرّفك في البداية، ووجدت وفاة والدك فرصة لزيارة تؤكد لي أنك ابنة أختي.. رغم أنني كنت شبه متأكدة، لكن مرآكِ أفزعني.

المرأة تثير غضبي بمثاليتها ومواعظها.. يمكنني السيطرة تمامًا على أعصابي، لكن لماذا أكبت غضبي الآن؟ هذه الهشة تستحق. أهتف مدافعة عن حقوقي:



- لقد صرت الابنة التي تفخر بها! صرت طيارة مثل ابنك وصرت مثلما أريد ودون أن أعالج.. علاجكم بتر، وعلاجي استغلال موهبتي لن تفهميني.. مثلك كمثل أبي بالضبط؛ لذا أوهمته أنني عولجت.. لكنه لم يثق بي قط.

تقول المرأة بصوت آمر:

- ابتعدي عن (يحيى) يا (مريم).

أرفع كفي وأقول ساخرة:

- أنا بعيدة هو من قطع طريقي، وأنا الوحيدة القادرة على مساعدته الآن (مريم) أنقذتك وأنقذت ابنك، ولا أريد منكما شيئًا .. أنتما من تحتاجان مني الكثير.

أقوم مبتعدة عنها، وأتربع خلف حاجز خشبي قصير، أشاهد ما تصوره كاميرا المراقبة أمام منزل (يحيى). جهاز التشويش معي واختراق الكاميرا .سهل أنا الآن أشاهد فيلمًا أيقونيًا عن الإرادة الحرة هل هناك حقًا حرية إرادة؟

أرى (يحيى) يخرج ويلتقط المحقن، ثم يركع جوار (فادي).

القرار قراره..

أما أنا، فأنفذ العدالة في جريمة مُبدعة، لكنها ليست مثالية. أجمع كل ما أستطيع الحصول عليه من أفلام على الدارك ويب، بعدما أمحو وجودي تمامًا من هناك، وأكتب تقريرًا للشرطة أحكي فيه عن كل ما عرفته من خلال بحثي، وما عرفه (يحيى) دون أن أذكر اسمه، وأرفقه بالصور. أعرف إن الإثبات سيكون صعبًا على الشرطة، لكن بعض البحث



واستجواب (ماركو) وأخويه و(أوليفيه)، سيقود حتمًا إلى قطع أفرع شجرة الجنون هذه، لكن جذور الجريمة التي تدعي الكمال لن تُجتث إلا بمراوغات أذكى، وقدرات لا يملكها سواي و(يحيى)..

الصبر.





الإجابة النهائية.. وتساؤلات أخرى

يحيى

سيضيع كل شيء لا محالة، ولا مفر من ذلك.. في كل الحالات سيكون هناك موت وخسارة...

ما يداي..

مايداي..

مايداي..

استغاثة لن يسمعها سواي.

اصطادني الفيل المجنح أخيرًا.. اصطادني وهم البطولة..

ماذا أفعل؟ هل هذه نهايتي؟ أنا قاتل بكل المقاييس، حتى لو ضحكت على نفسي وأوهمتها أنني بطل.. مُنقذ...

أغرس الإبرة في وريد (فادي)..

مايداي..

ما يداي..

مايداي..

لا ولن يسمعني أحد..

كل شيء ينتهي، ولن يهرب أحد من مصيره.. ولا من اختيار فرضته عليه حرية الإرادة!

أسمع صوت هاتفي المحمول يرن في جيبي..



- (مريم).. طلباتك.. أسمعك...

أخبريني فقط يا (مريم) هل سأكون الضحية وتنتهي معاناتي.. أم القاتل الذي أدرك أخيرًا أن الموت ليس لعنة، بل تضحية لفائدة أكبر؟ مقابل لتلبية استغاثة أخرى؟

- سأرشدك إلى المهرب، ثم نتكلم.

صوت سيارة الشرطة تقترب...

أضع المحقن الخالي في جيبي، وأنطلق هاربًا في الظلام وصوت (مريم) عبر الهاتف يرشدني.

[تمت]

